الفرسان والأقنان في مجتمع الإقطاع

دكتور إسحق عبيد

أستاذ العصور الوسطى المساعد

جامعة عين شمس - جامعة بنغازي

منشورات

مكتبة قورينا للنشر والتوزيع

شارع عمر المختار - بنغازي ج.ع.ل

هاتف ٩٢٤٨٢ ص.ب ٩٥٥

الطبعة الثانية
١٩٧٥

مطبعة دار الكتب ، بيروت ــ لبنـــان

الفرسان والأقنـــان
في
مجتمع الإقطـــاع



المحتويات

«When Adam dalf and Eve span,
Wo was thenne a gentilman ?»

(John Ball)

الفَصْلُ الأوّل

في تعريف الإقطاع

عرفت العصور الوسطى نظام الإقطاع بعد تصدع امبراطورية شرلمان سنة ٨٤٣ م ، في ظل تهديدات مستمرة من جانب غزوات متبربرة جديدة تمثلت في هجمات النورمان والماغيار . واستمر هذا النظام في أوروبا من القرن التاسع حتى انهياره في القرن الرابع عشر ، والواقع أن أهل عصور الإقطاع كانوا أكثر التصاقاً بالطبيعة من الانسان في العصر الحديث ، كما وأن الطبيعة كما خبرها إنسان تلك العصور كانت متجبرة ومستعصية الترويض ؛ فلقد انبسطت على خريطة أوروبا في ذلك الوقت مساحات شاسعة من الأرض لم تمتد إليها يد الإنسان ، وإنما كانت مرتعاً للحيوانات الضارية التي لا نكاد نسمع شيئاً عنها اليوم إلا من خلال قصص الأطفال أو روايات الشاشة . وكانت الدببة البرية والذئاب المفترسة تحوم حول أطراف البراري والغابات ثم تنقض على قلب الأراضي المنزرعة ، أملاً في فريسة آدمية . ومن هنا فإن ممارسة أهل العصر لرياضة صيد تلك الحيوانات كانت أمراً حيوياً لدرء خطرها من ناحية وللحصول على لحومها من ناحية أخرى . وقد يعجب البعض عندما يطالعون أن بعض الناس في بداية عصر الاقطاع كانوا يقتاتون على التقاط الثمار البرية ، تماماً مثلما كان يعيش الانسان الباكر في سحيق الأزمان . وكانت

أدوات الزراعة أيضاً بدائية للغاية ، ولكأن زمان العصر الوسيط كان يسير إلى الخلف لا إلى الأمام . ولم يكن الناس يخشون شيئاً بقدر خشيتهم من الليالي وبردها القارس وظلامها الكاحل . وخلاصة القول ان انسان العصور الوسطى كان يسلم أمره لقوى غيبية متقلبة لا يحلم أبداً في السيطرة عليها . وعليه فإنه ليس بالمستغرب أن نسبة عالية من أطفال ومواليد تلك العصور كانت هالكة ، وكان كل أب يتوقع وفاة أول مواليده بسبب الظروف المعيشية القاسية التي كان يحياها الجميع . ولم يكن حظ الكبار أفضل من حظ الصغار ، فمن لا يهلك في الغابة يقتل في الحروب ، ومن يفلت من المحنتين لا يعمر أكثر من الأربعين عاماً بقليل في أغلب الأحوال . إن تلك الظروف القاسية هي التي بلورت عقلية العصر الوسيط ، فكان الناس يرون في مظاهر الطبيعة علامات على سوء المصير ، وأصيب المجتمع بالتوتر والهلوسة وتاه العوام والخواص في أحلام اليقظة ، ونشطت البيوتات الديرانية في وسط هذا الجو الذي يحكمه المجهول فراح الرهبان وأهل الدين يقضون فراغهم في تفسير الأحلام والرجم بالغيب ، وفسروا الظواهر الطبيعية بخيال ساذج في زمان غاب فيه العلم وتوارى عنه حكم المنطق والعقل .

ومن هنا فإن مؤرخ العصور الوسطى يصطدم بالضرورة بمشاعر من اليأس ونوبات الغضب وتقلب الطبائع والأعمال القهرية وغيرها من التناقضات الهائلة لدى أهل ذلك العصر الذي يؤرخ له . ولذا فإنه من الصعوبة البالغة بناء تاريخ عقلاني لعصر لم يعرف أبجدية العقلانية . وإذا كان اللا معقول عنصراً قديماً في سجل البشرية منذ فجر تاريخها ، فإنه يتضح بشكل صارخ في حوليات العصور الوسطى . ويكفي أن نؤكد أن أهل العصور الوسطى ، الذين قهرتهم معاول عصرهم من الخارج وفي الداخل ، لم يكن لديهم إحساس واضح بعامل الزمن ، فهم لا يملكون الوسيلة التي يقيسونه بها ، فلم تتوافر لديهم — إلا في حالات نادرة — ساعات مائية ولا شمسية ، ولم تكن الأخيرة إن وجدت لتجدي كثيراً في جو ملبد بالغيوم في أغلب فصول السنة . ونحن نعلم أن

ألفرد العظيم ملك انجلترا كان يستعين بعدد مهول من الشموع يشعل الواحدة من الأخرى لمتابعة مرور الوقت . وهنالك رواية من مقاطعة هينولت عن مبارزة اتفق على اجرائها بين خصمين ، ووصل واحد من الخصمين في وقت الفجر ، ثم وصل إلى موقع المبارزة الحكام ورجال الدين للشهادة عليها ، ولكن الخصم الثاني لم يظهر ، فطالب الأول بالحكم له بالفوز لأن خصمه قد فشل في الحضور ، ولكن الحكام ظلوا يتداولون في الأمر طويلاً وهم يطلبون إرشاد رجال الدين لكي يتحققوا من أن الخصم الثاني لم يأت في « الساعة » المتفق عليها ، فلم تكن هنالك حيلة ثابتة المدلول لمعرفة الحين أو الوقت . لم يكن الزمن ذا قيمة معلومة في أذهان هؤلاء القوم ، ولذا فإن العديد من سجلات ووثائق العصر الوسيط تخلو من التواريخ ، مع أنها قد كتبت أساساً لكي تكون سجلاً زمنياً على تاريخ أو حدث خطير ، كتاريخ ميلاد أو وفاة أو وراثة أرض أو حفل تتويج إلى آخره . وينتج عن تلك اللامبالاة بعامل الوقت لامبالاة أخرى لا تقل سوءاً عن توأمها ألا وهي اللامبالاة بالأرقام والأعداد والاحصاء . ومن هنا فإننا نرتطم بأرقام خرافية حول أعداد الجند والقتلى ، فعلى سبيل المثال لا الحصر ، إننا نعلم – وفق الأبحاث العلمية الحديثة – ان وليم الفاتح دوق نورمانديا لم يكن يقود معه وهو يعبر القنال الانجليزي لغزو انجلترا أكثر من خمسة آلاف من الفرسان ، غير أن وثائق العصر تتردى في مبالغات تجعل من جيش وليم ما بين الثلاثين والستين ألفاً من الفرسان في يوم هاستنجز ١٠٦٦ م .

أما عن لسان العصر ، فقد كانت اللاتينية هي لغة المتعلمين ، ولكن غالبية الناس كانوا يتكلمون باللسان المحلي (Vernacular) . ومن هنا كانت الثنائية حتى في اللسان ، وكانت الجرمانية والكلتية والانجلوسكونية والفرنسية تفرض نفسها جنباً إلى جنب قبالة اللاتينية ، وقد فسدت الأخيرة وتسربت إليها الفاظ كثيرة من أصول متبربرة لتساير روح العصر ومتطلبات أهله . كما وأن اللاتينية كانت هي لغة الكتابة الوحيدة ، وهنا نجد صعوبة

أخرى تتصل بالتأريخ لذلك العصر : فمثلاً لو أن مشادة قامت بين اثنين من الفرسان حول ايجار إحدى الاقطاعيات ، فإنهما كانا يتنازعان طيلة الوقت باللغة المحلية لا باللاتينية ، ولكن عندما تسجل لنا وقائع تلك المشادة تسطر باللاتينية على يد واحد من الكتبة المحترفين . وغني عن البيان أنه بين ما يرد إلينا في الوثائق باللاتينية وما قد وقع باللسان المحلي هوة جد سحيقة . كذلك نصطدم بمشكلة أخرى هي الترجمة من لسان الكلام إلى لغة المكتوب ، ومن يرجع إلى وثائق العصر يجد في بعضها كيف أن كلمة « كبير أساقفة » (archhiepiscopus) قد ترد في صيغة « كبير عبدة النار » (archiflamen) ، وكلمة « كونت » (Comes) كثيراً ما ترد على أنها « (Consul) ، وكلمة « إقطاع » كثيراً ما وردت في بداية العهد لا في معناها الجرماني الأصل (Lehn) وإنما على أنها شيء آخر تماماً . معنى هذا أن لغة القانون نفسها كانت تعاني من الفوضى في الازدواجية وفي الترجمة على حد سواء ، الأمر الذي يباعد بين ما قد كان بالفعل وبين ما قد كتب بأنه قد كان . ولنا أن نتساءل عن قيمة وثائق العصر التي سجلت باللاتينية : هل تلكم اللغة الخاصة بطبقة قليلة من المتعلمين (literati) تعبر بالفعل عن روح العصر الوسيط ؟ يضاف إلى هذا أن اللاتينية الوسيطة كانت لساناً قاصراً في الغالب على رجال الدين ، أما العالم العلماني فكان أبعد ما يكون عن اللسان اللاتيني . ويكفي أن نعلم أن امبراطوراً عظيماً في القرن الثامن هو شرلمان ذاته لم يكن يعرف القراءة ولا الكتابة ، وأن أوتو العظيم مؤسس الامبراطورية الرومانية المقدسة لم يكن يعرف حروف الهجاء ، كما وأن أبناء طبقة النبالة الإقطاعية شمالي البرانس والألب كانوا « أميين » (illiterati) بكل ما تحمله هذه الكلمة من معان ، لدرجة أن الغالبية العظمى منهم ممن اعتادوا على زيارة الأديرة في أمسياتهم ، لم يكونوا بقادرين على مجرد « القراءة » في الكتاب المقدس (idiota) .

لقد أطلق الكتاب على العصر الوسيط « عصر الإيمان » ، ويحق لنا أن

نضيف إلى ذلك الحكم صفة « الإيمان الأعمى » ، لأن واحداً ما لم يفكر في مجرد التشكك فيما يقال له بواسطة رجال الكنيسة، مهما كان ما يقال منافياً للعقل ولأبسط قواعد الصواب .

إن محاولة تقديم تعريف قاطع للإقطاع هي محاولة ساذجة وخاطئة في النهاية ، أو قريبة إلى الصواب ولكنها معقدة وغير مفهومة . ولذا فإنه لا مفر من اللجوء هنا إلى عزل عناصر الموضوع وفحصها ثم محاولة ربطها ككل في نهاية الأمر لنتعرف على مدلول شاف للإقطاع :

ـ فأمامنا عناصر سياسية واقتصادية واجتماعية، وعلاقات غير مقننة ثم أخرى مقننة بين السيد والفصل ، ونظم حكم إقطاعية يتربع على قمة هرمها حامل التاج ، وتسلم أرض مقابل خدمات بعينها مدى الحياة أو بالوراثة ، ثم لدينا مؤسسات أو نظم من المحاربين وفي القضاء وفي الضرائب وفي مجالس المحاكم .

نحن إذا أمام قضية متشابكة الأفرع ومعقدة للغاية ، لأنها في حقيقة الأمر محصلة تطورات كثيرة ؛ لعل أبرزها هي حقيقة تحطم الحكومة المركزية بعد سقوط روما في أيدي الجرمان (٤٧٦ م) وما تبع هذا من انهيار في دواليب الإدارة . وقد استتبع هذا الانهيار أن قام بعض الأفراد الأقوياء باغتصاب امتيازات كانت وقفاً على الحكومة فيما سبق إلى أيديهم . ولا يغيب عنا ان الاقطاع في العصور الوسطى كان ظاهرة عالمية وضحت في الغرب اللاتيني ، وفي بيزنطة ، وفي العالم الإسلامي وأيضاً في اليابان .

وطبقات المجتمع الإقطاعي ثلاث : هؤلاء الذين كانت حرفتهم الصلاة ، وهؤلاء الذين كانت وظيفتهم حمل السلاح ، ثم اولئك الذين كان عليهم فلاحة الأرض لإنتاج لقمة العيش [1] .

---

(1) «Those who prayed, those who fought, those who worked».

ولقد اختلفت النظم الإقطاعية من مكان لآخر ، حتى في داخل الدولة الواحدة ، ولذا فإن حديث مؤرخ مثل فينوجرادوف عن « الكفر » (manor) كأساس للإقطاع يمكن تعميمه في حديثنا عن النظم الاقطاعية في غرب أوربا ، أمرٌ يحتاج إلى الكثير من الحذر .

قلنا إن الاقطاع قد نشأ عندما انهارت أجهزة الحكومة المركزية وعجزت الدولة بالتالي عن الاضطلاع بواجباتها ، فالتقط بعض الأفراد الأقوياء هذه الصلاحيات واضطلعوا بها تلقائياً بدلاً من الحكومة العاجزة .

لقد حاول البعض تبسيط الأمر . فراح الاستاذ جيمس وستفول طومسون يشبه نظام الإقطاع بالحالة التي سادت في شيكاغو في عشرينات القرن العشرين ، عندما ظهرت عصابات من قبيل « آل كاپوني » وصار لكل منها « دستورها » في الإجرام والسطو تحت زعامة واحد من العتاة يمتثل الجميع لأمره ولا لتزاماتهم المتفق عليها نظير قدر محدد من المكافأة (٢) .

غير أن هذا التبسيط أمرٌ مستهجن ، وان كان لا يخلو من طرافة . إن البحث في نظام الإقطاع يتطلب معالجة ثلاث قضايا : ١ — تغير وضع الأرض . ٢ — تغير وضع الأفراد . ٣ — ظهور الامتيازات .

وهذه العناصر متداخلة بطبيعة الحال ، وللبحث عن أصولها يجب الرجوع إلى الامبراطورية الرومانية . ومع أننا لا ننكر بأن الاقطاع قد ورد من منابع جرمانية مع قبائل القوط وأمثالهم ، إلا أن الجذور العميقة للإقطاع تكمن أيضاً في ثنايا الدولة الرومانية : إن تغير وضع الفرد بالنسبة الآخرين على أساس « الأرض » يرجع إلى القرن الثالث للميلاد ، فعندما ازدادت وطأة الضرائب على كواهل الفلاحين لجأوا إلى « رهن » أراضيهم إلى السادة الأغنياء

---

(2) See La Monte, J.L., The World of the Middle Ages, N.Y. 1949, p. 207 : «If one could only imagine the armored car as a mailed horse, and the tommy-gun as a lance, the conditions in Chicago were such as to make feudalism ver ceasy to understand».

مقابل قرض معين . وعندما عجز الفلاح عن سداد ديونه ضاعت عليه الأرض وأصبح مجرد مزارع في أرض كان يملكها سابقاً ولكنها لم تعد له . وقد شهد نفس القرن محاولات الفلاحين في التهرب من دفع الضريبة للدولة وذلك بالتنازل عن الأرض لواحد من كبار موظفي الدولة المعفين من الضرائب من طبقة السيناتوريين مثلاً ، وفي مقابل هذا التنازل يسمح السيد الجديد للأرض للفلاح بالاستمرار في زراعة الأرض مقابل خدمات وضرائب أقل حدة من وطأة الضرائب الحكومية . وكان الاتفاق بين الطرفين يتم شفهياً ، ولم تكن تحرر له « عقود » رسمية ، ومن ثم فقد كانت الأرض عرضة للضياع تماماً إلى حوزة السيد، ويصبح الفلاح بعدها « معدماً » لا يملك أرضاً . وبعد قليل عندما نقص عدد العبيد في الأمبراطورية الرومانية ، قلت بالتالي الأيدي العاملة في فلاحة الأرض ، وشعر السادة أصحاب الأراضي الشاسعة بالخطر ، فاضطروا إلى القيام باجراء عكسي لما سبق توضيحه : فسمح السيد لبعض الفلاحين بزراعة رقعة من أراضي السيد المهجورة مقابل أجر معين وذلك وفق « عقد » بين الطرفين (**Precarium**) . وبعد ذلك اضطر أصحاب الأراضي الشاسعة إلى زراعة الأرض بمشاركة الفلاحين مقابل جزء من المحصول . وفي أغلب الاحيان لجأ السادة إلى جلب هؤلاء العمال الزراعيين **(Serfs-Villeins)** من أماكن نائية ، وكانت مهمتهم « تعمير » الأرض المهجورة وزراعتها، ومن هنا ولدت لفظة **(Coloni)** التي هي النواة الأولى للقنية **(Serfdom)** . ولما أن أصدر الأمبراطور دقلديانوس (قرن ٣ م) قانونه بتثبيت العاملين كلا في مكانه ، ضماناً لحصول الضريبة لخزانة الدولة ، ارتبط الفلاح بالأرض لا يبرحها أبداً .

على أن الأمبراطورية الرومانية في أواخر أيامها كانت تضم أراضي شاسعة غير منزرعة ، وكان يهم الحكومة أن تجد من يقوم على استصلاحها وفلاحتها بدلاً من أن تبقى بواراً . ولذا فقد منحت الحكومة رقعاً من هذه الأرض لبعض الأفراد وأعفتهم من الضرائب لعدد من السنوات ، وعرف

هذا النظام بأسم (emphyteusis) . وقام هؤلاء الأفراد بجلب عدد من الفلاحين ، إما من بين هؤلاء الذين كانوا قد رهنوا أراضيهم للسادة (Precari) أو من ابناء طبقة « معمري الأرض » (Coloni) ومن هذا النظام الجديد نشأت «كفور » أو « قرى » السيادة أو « المحلات » (Manors) [٣] .

من هذا يتضح أن نظام « محلة السيادة » ليس من ابتكارات العصر الوسيط بقدر ما هو نتاج للأحوال الاقتصادية المتدهورة التي سادت الامبراطورية الرومانية المتأخرة . وعندما زحفت القبائل الجرمانية من قوط وفرنجة وونदال في القرن الخامس وغزت الولايات الامبراطورية ثم اضطلعت بحكمها ، أقرت النظام الزراعي السائد والذي كان يلائم طبيعة الجرمان وأحوالهم في موطنهم الأصلي . ولكنهم أضافوا عليه تجديداً مؤداه أن تقوم كل « قرية » بتموين الجند الذين يقومون بحمايتها ، وهذا المعنى واضح من الكلمة التي استخدموها للدلالة على هذا النظام وهي (Hospitium) . كذلك قام الجرمان بمصادرة كثير من الأملاك الزراعية لصالح بعض القواد من بني جلدتهم . على أن هذا الاجراء لم يصب الفلاحين بضرر بقدر ما أصاب الموسرين من الرومان من ابناء البيوتات النبيلة . أما الفلاحون فقد بقوا على الأرض التي كانوا يفلحونها كذي قبل ، والذي حدث تماماً هو أن تغير السادة من رومان إلى جرمان .

هذا عن تغير وضع الأفراد بالنسبة لتغير وضع الأرض (Tenurial dependence) أما عن تغير وضع الأفراد بالنسبة لعلاقاتهم بأفراد آخرين . (Personal dependence) ، فهذا أيضاً تطور وقع في أواخر عهد الامبراطورية الرومانية : لقد عرف الرومان منذ العصر الجمهوري

(3) Manor : manoir = dwelling — Latin origin, v. manere = to stay, dwell.

نظام « الحماية » أو « الولاية » أو « الظهرة » (Patronage) [٤] ؛ فقد كان من حق الأعيان الرومان من طبقة الباتريكيان أن يفرضوا حمايتهم على أفراد من المجتمع الأقل درجة ، ويصبح الفرد الذي تبسط عليه تلك « الحماية » و ليآ » (Cliens) [٥] لهذا السيد أو ذاك النبيل . وكان السيد «الحامي » يقوم بالنيابة عن « أتباعه » أو أوليائه » أمام المحاكم ، ويرعى مصالحم مقابل قيام هؤلاء الآخرين بأداء خدمات معينة له ، عند قيامه بسفر أو بمهمة إلى العاصمة أو إلى خارج البلاد . ومع مرور الوقت تمتع بعض كبار السادة في الامبراطورية الرومانيـــة بحق فرض « حمايتهم » على ولايات بأكملها : فلقد وضع أبناء بيت سكبيو « كل اليونانيين المقيمين في روما » تحت حمايتهم . كذلك صار من حق النبيل الروماني الذي يعتق عبداً من عبيده أن يفرض عليه « حمايته » . وعندما يزداد نفوذ نبيل ما في الدولة ، يقبل عليه الكثيرون من « الأدنياء » يلتمسون منه أن يفرض عليهم « حمايته » . وإذا ماقبل السيد هؤلاء تحت حمايته يصبحون « أهـــلاً للحمايـــة » (Suscepti) [٦] . ولما أن ضربت الفوضى بأطنابهـــا في ولايات الامبراطورية الرومانية ، عمد السادة إلى تحويل هؤلاء « الذين تحـــت حمايتهم » إلى حرس خاص لهم ، يتنقلون معهم أينما ذهبوا ويقومـــون بحراستهم عندما يلقون بالخطب العامة في الميادين ، ثم يسهرون على حراستهم في قصورهم . وكان هؤلاء الحراس يعيشون على كرم السيد وهباته لهم . ولقد أيقين السادة الرومان من تجاربهم خطورة الاعتماد على العبيد المسلحين ووجدوا في هؤلاء الحراس الجدد أماناً أوفر .

---

(4) Patronage : guardianship, tutelary care. — Latin origin : patronus = patron.

(5) Cliens : one who is at the call of his patron; a plebeian under the protection of a Patrician; a dependent. — Latin origin : cluere = to listen.

(6) Suscepti : Sponsered, received, — Latin origin : suscipere : to receive.

ولما أن تغلغل الجرمان في صميم حياة الامبراطورية الرومانية ، عمد الكثيرون من النبلاء الرومان إلى تأليف حرس لهم من هؤلاء الجرمان ، الذين عرفوا بشدة بأسهم في القتال . وفي القرن الرابع صار لكل نبيل مرموق حرسه الخاص من الجرمان . يعيش أفراده في قصر السيد للسهر على القصر وعلى حياة سيده . ولم يكن هذا النظام غريباً على الجرمان ، فقد كان لكل زعيم جرماني في موطنه الأصلي « عصبة » من « الرفاق » يحاربون في صفه ، وكان عليه أن يمدهم بالسلاح ويزودهم بالطعام ثم يشاركهم في الغنائم التي يحصلون عليها من إغاراتهم ومعاركهم . وقد عرف هذا النظام بأسم « الزمالة في خدمة الزعيم » (Comitatus) [7] . وفي وقت الحروب تسود على هذه العصبة روح الجماعة ، فيشاركون في الطعام والشراب ، وقد يتخلل فترات السلم حروب جانبية بين واحدهم والآخر . ويتميز النظام الجرماني على النظـــام الروماني في أن الأول تسوده روح « الزمالة » والمشاركة بين السيد والمحاربين ، كذلك كان في مقدور أي من شجعان عصبة « الزمالة » أن ينفصل عنها ليكون لنفسه فرقة زمالة مستقلة تقوم بإغاراتها ومغامراتها لحسابها الخاص . والواقع أنه كان يتحتم على كل شاب جرماني — وفق التقاليد السائدة — أن ينخرط في واحدة من تلك « الفرق » ، فالحرب هي الحرفة الشريفة الوحيدة عند الجرمان ، كما أفاض في ذلك المؤرخ الروماني تاكيتوس في كتابة جرمانيا » (Germania) .

وعلى هذا فعندما دخل الجرمان في خدمة الرومان أدخلو معهم نظام «الزمالة وكان هذا يتم وفق مراسيم خاصة تتمثل أساساً في أداء يمين الولاء (Allegentia) وبذلك يصبحون « رفاقاً » للسيد إلى جانب كونهم حراساً له . وإذا وصلنا إلى القرن الخامس نجد كبار نبلاء الرومان من القادة يعتمدون في تأكيد نفوذهم السياسي لا على الفصائل الرومانية الملحقة بقيادتهم وإنما على جيوشهم الخاصة

(7) Comitatus : a retinue of warriors attached to a chieftain. — Latin origin : comes.

من الجرمان . وهؤلاء الجرمان لا يخدمون الدولة بقدر ما يخدمون مصالح سيدهم المباشر ، وقد عرفت هذه الفرق الجرمانية باسم « أصحاب الجرايات المميزة » (Bucellarii) [٨] . لقد كان القائد الروماني اثتيوس ، بطل معركة شالون سنة ٤٥١ ضد جحافل الهون بقيادة الزعيم الجبار آتيلا ، يملك جيشاً خاصاً من هؤلاء الجرمان « أصحاب الجرايات الممتازة » . ولعل هذا هو السبب الذي أوغر صدر الامبراطور فالنتنيان الثالث ضده ، فدبر مؤامرة تم فيها اغتيال اثتيوس ، ثم استولى الامبراطور على هذه الفرقة من الجرمان لنفسه . غير أن « الولاء » الأصلي لهذه الفرقة كان للقائد الذي تم اغتياله ، ولذا فقد دبر رؤساء هذه الفرقة مؤامرة اغتالوا فيها الامبراطور نفسه بعد وقت قليل . هذه الفرق المتبربرة من أصحاب الجرايات العالية ، هي التي كونت بعد الغزو الجرماني لولايات الامبراطورية القوة المحاربة للدويلات والممالك الجرمانية التي قامت على حطام الامبراطورية الرومانية . وكانت العادة أن يحصل أفراد هذه الفرق على رواتبهم عن طريق النهب والغنائم . غير أن القوط الغربيين في غالة واسبانيا ابتدعوا نظاماً جديداً ، ألا وهو توزيع بعض الأراضي على أفراد هذه الفرق . وبذلك يكون الابتداع القوطي في توزيع أرض على الجند المحاربين هو النواة الأولى للنظام الاقطاعي . وإن كان ذلكم العصر لم يخلع على من يتلقى الأرض لفظة « فصل » أو تابع (Vassal) .

لقد اساء الكثيرون — في العصر الحديث — فهم مدلول كلمة « فصل » ، ففسروها وكأنها ترادف أفراد « الخدم والحشم » . ولعل هذا الخطأ يرجع إلى الشعبية التي لاقتها أوبرا « الفتاة البوهيمية » ، حيث وردت أغنية على لسان تلكم الفتاة تقول « ها أنذا أعيش في صالة من الرخام ، تحفني رعاية الأفصال والأقنان من كل جانب » . إن الايحاء هنا يشير إلى تقارب بين وضع الفصل والقن ، وهذا خطأ فادح ، لأن الفصل ينتمي إلى طبقة النبالة التي منها

(8) Bucellarii : Superior troops. — Latin origin : Bucellae = a special ration superior to the food issued the ordinary troops.

سيده ، أما القن فهو منفصل تماماً عن طبقة السادة والأفصال بفعل هوة سحيقة فرضتها عليه النظم الاجتماعية والاقتصادية السائدة في عصر الإقطاع . كما أن الفصل كان في نفس الوقت سيداً ، له الأرض ومن عليها من أقنان .

لما أن اشتدت وطأة الغزوات المتبربرة لجأ كثيرون من السادة إلى إقطاع رقع من الأرض لأفراد اشتهروا بالبأس في القتال ، على أن يساهم هؤلاء الأفراد مع اولئك السادة في وقت الحروب ، وتلقى المحارب الأرض ومن عليها من أقنان – وفق عقد إقطاعي – وأصبح يعرف في وثائق العصر بأسم « الفصل » **(Vassalus)** [٩] . كذلك ابتدع الملوك الميروفنجيون في غالة نظاماً أقطعوا بموداه بعض الأراضي للكنائس والأديرة ، مشفوعة « بحصانات » ضد تدخل موظفي التاج وجامعي الضرائب . وعلى مر السنين امتدت هذه « الحصانات » فشملت بعض المرموقين من العلمانيين أيضاً . ولما أن ضعفت السلطة الملكية ، أغتصب بعض الأقوياء هذه « الحصانات » بقوة السيف ، ولم يملك الجالس على العرش القوة للتصدي لهؤلاء الأقوياء من النبلاء . وإذا وصلنا إلى نهاية العصر الكارولنجي فإنه « لم تكن هنالك أرض بدون سيد » **(Nulle terre sans seigneur)** ، وقد أصبح هذا لسان الحال في بداية عصر آل كابيه في فرنسا .

إن أول صورة من صور الإقطاع هي ما يمكن تسميته « بالأخباز » **(Beneficium)** [١٠] ويقصد بذلك الأرض التي تقطع إلى رجال الكنائس أو الأديرة من قبل التاج مقابل الصلاة لحامل التاج ولعرشه ثم لروحه بعد وفاته . وفي بداية الأمر يقوم من يتسلم الأرض باستغلالها للعيش

---

(9) **Vassal : non-servant (literally speaking). — Medieval Latin : Vassalus = one holding lands from a superior on conditions of homage and allegiance.**

(10) **Beneficium : Land granted in feudal tenure, to be held temporarily, but theoretically retained by the lord.**

على إنتاجها (usufruct) ، [١١] وتظل الأرض ملكاً للسيد . ثم تطور الأمر فصارت هـــذه « الأخباز » تمنح أيضاً إلى بعض المحاربين مقابل الخدمة العسكرية وبنفس الشرط ، وهو بقاء الأرض ملكاً للسيد . على أن العجز الذي أصاب دولاب الحكم في أواخر عهد الدولة الميروفنجية في غالة ، شجع الأفراد أو الهيئات الذين تسلموا تلك الأرض على تحويل هذه « الهبات » إلى « إقطاعات » وراثية ، وهنا استبدلت لفظة **Beneficium** بكلمة **Feudum** [١٢] .

إن هذا التحول قد طرأ عندما تحطمت الحكومـــة المركزية في الدولة الميروفنجية في غالة ، وصارت ادارة شئون الولايات في أيدي نواب الملك الملقبين بلقب « كونت » **(Comes)** ، وهي كلمة مشتقة من لفظة **Comitatus** التي سبقت الاشارة إليها عند الجماعات الجرمانية . وكانوا في الواقع « رفقاء » الملك ، ثم أخذوا في حكم ولايات المملكة بأسمه . وفي بعض الأحوال كان الملك يعهد بشئون إقليم كامل لواحد من أمراء البيت المالك ، وهو في هذه الحالة يتلقب بلقب « الدوق » (Dux) . وفي بداية الأمر كان هؤلاء النواب الملكيون يحكمون الولايات بأسم الملك ، غير أنه عندما ضعفت قوة التاج راح هؤلاء يحكمون لصالحهم متجاهلين حقوق التاج . ونلمس ازدياد نفوذ هؤلاء النواب من كونتات وأدواق في العصر الكارولنجي من واقع جهود شرلمان الذي أصر على تعيين « مبعوثيـــن ملكيين » أو مفتشيـــن **(missi Dominici)** لمتابعة سير الحكم في الاقطاعات ولمحاسبة الكونتات والأدواق ثم العمل على اخضاعهم لسلطان التاج الكارولنجي . ولكن مع انهيار قوة الكارولنجيين ، ازدادت سطوة الكونتات والأدواق ، وراحوا

---

(11) **Usufruct: Temporary use or enjoyment of the advantages of property. — Medieval Latin origin : usus-fructus : abl. usu-fructu.**

(12) **Feodum : an estate in land, always heritable, held on condition of homage and service to a superior lord.**

يعقدون المحاكم ويجبون الضرائب ويقتنون الجيوش لحماية مصالحهم الخاصة. والأهم من كل هذا أن الكونت أخذ يقطع الأراضي للأفصال مقابل الخدمة العسكرية في صفه ، وغالباً ما تكون حربه المرتقبة ضد حامل التاج نفسه .

واضطر الملوك « العاجزون » إلى التسليم بالأمر الواقع ، واكتفوا بيمين يؤديها الكونت بالولاء للتاج وبتعهد بالمساهمة بنفر من الفرسان في وقت الحروب ، وببعض من المال يقدمه في المناسبات . وهنا يكون النظام الاقطاعي قد اكتمل تماماً . هنالك ثلاثة أنواع رئيسية من إقطاع الأرض: الأول .. « إقطاع المنة » ، والثاني .. إقطاع الخدمة الفرسانية » ، والثالث « إقطاع الجند » .

(١) إقطاع المنة (Frankalmoin) [١٣] :

وهو أصلاً هبة أو عطية من الأرض لهيئات دينية دون قيد أو شرط . ولم يكن على البيت الديني الذي يتلقى هذه المنة أي التزام ديني أو دينوي تجاه من يمنح الأرض إليه . وقد خلط بعض الكتاب بين هذه « الهبة » غير المشروطة . وبين « الهبة » المقرونة بشرط الصلاة من أجل صاحبها ، وهذا ما يعرف باسم (Beneficium) والذي بمؤداه يحق للمؤسسة الدينية أن تتمتع بالإقطاع طالما أنها تقيم الصلوات وتتلي القداسات من أجل حياة صاحب الأرض طيلة حياته أو على روحه بعد وفاته .

(٢) إقطاع الخدمة الفرسانية (Military Tenure) :

وهو إقطاع الأرض مقابل أداء خدمة عسكرية بعدد محدد من الفرسان . ويتحدد عدد الفرسان وفق قيمة الإقطاع ، ومقدرة الفصل على المساومة ، وأيضاً حسب ظروف حامل التاج وقت منح الإقطاع . وقد تحددت الخدمة العسكرية في فرنسا في القرن الثاني عشر بأربعين يوماً في العام ، وذلك على

---

(13) **Frankalmoin : the tenure of lands, bestowed upon God, that is, given to a religious corporation for pure and perpetual alms, free fram any temporal service. — Latin origin: Libera eleemoyna.**

نفقة الفصل ، أما ما يزيد على هذه المدة فيكون على نفقة السيد . والخدمة العسكرية نوعان : ميدانية في وقت الحروب ، وحراسة قلعة السيد التي تحدد خلافاً لمدة الأربعين يوماً السابق ذكرها . والخدمة الميدانية بدورها نوعان ، فمنها خدمة الفصل إلى جانب سيده في المعارك لصالح صاحب التاج — وهو نظرياً سيد الجميع — وهي ما تشير اليها الوثائق المعاصرة بلفظة **chevauchée** ، ثم خدمة الفصل إلى جانب سيده في معاركه الخاصة حتى ولو كانت ضد حامل التاج نفسه ، وهي ما تشير إليه المصادر بلفظة Ost . وإن كان فريق من الكتاب يحاول التمييز بين الاثنتين على أساس المدة الزمنية في الخدمة ، فقالوا بأن الأولى تشير إلى مدة من الخدمة أقصر من الثانية . وفي معظم بلدان غرب أوروبا وضعت حدود لهذه الخدمة العسكرية ، فلم يكن من حق السيد أن يجبر فصله على مصاحبته ضد إرادته للحرب خارج حدود المملكة . كما أنه لم يكن من الجائز أن يلزم الأفصال دون الخمسة عشر عاماً أو فوق الستين عاماً بأداء الخدمة العسكرية . أما النساء فكن معفيات من الخدمة العسكرية . ولكنهن — كأفصال — كان ينبغي عليهن إمداد السيد الإقطاعي بفرسان يقومون بالخدمة نيابة عنهن .

(٣) إقطاع الجند (Sergentary) :

وهو إقطاع الأرض لأفراد مقابل خدمات من أهمها القتال في صف السيد كجند مشاة . وفي بعض الأحيان كانت تستبدل بالخدمة كمشاة مهام أخرى مثل إمداد السيد ببعض الخيل والحراب والأقواس . وأحياناً أخرى مقابل الخدمة كحراس للخيل أو طهاة في قلعة السيد . وقد عرفت انجلترا إقطاعاً من هذا القبيل مقابل « السهر على رأس صاحب الجلالة في أثناء عبوره القنال الانجليزي » ، وقد تسلم الشخص المنوط بهذه الخدمة المرموقة إقطاعاً دسماً في مقاطعة كنت ، كما أن الملوك الإقطاعيين اعتادوا أن يمنحوا إقطاعات للكتبة والموظفين العاملين في البلاط مقابل خدماتهم هذه . وكان الأديب

العظيم جيوفري تشوسر (Chaucer) من بين هؤلاء .

وإلى جانب هذه الأنواع الثلاثة من الإقطاع ، عرفت بلدان جنوب أوروبا نوعاً آخر يتمثل في إقطاع من قبل التاج إلى بعض الأفراد مباشرة ، دون وساطة السادة الاقطاعيين ، وعرف هذا النظام باسم allods . كما أن ملوك انجلترا كانوا أحياناً يقطعون رقعاً من الأرض لبعض الأفراد مقابل ايجار مالي أو عيني ، وعرف هذا باسم **Socage** .

الفصل الثاني

السيد والفصل

عندما قامت الملكيات الإقطاعية في غرب أوروبا ، متمثلة في آل كابيه في فرنسا ، وفي النورمان في انجلترا ، والسكسون والساليون في ألمانيا ، أصبح حامل التاج سيداً إقطاعياً للجميع في مملكته ، فهو يتربع على قمة الهرم الإقطاعي . وهو يتلقى التاج بالوراثة ، ولكنه قبل تتويجه ملكاً كان يلقب « بالسيد » (dominus) مثله في هذا مثل أي سيد إقطاعي آخر . غير أن حفل التتويج ومسح الملك بالزيت المقدس يجعل منه « ملكاً بإرادة الله » (Rex Dei gratia) ، وهذا الطقس يخلع على صاحب الجلالة مسوحاً دينية تضاف إلى صلاحياته العلمانية . والملك في عصر الإقطاع يملك ويحكم أيضاً : فهو الذي يعين كبار المسؤولين في أجهزة الحكم وفي البيوت الدينية . وهو الذي يوجه السياسة الخارجية ويعلن الحرب ويقود الجيوش ويبرم معاهدات السلام . وللملك دخله الخاص من أملاكه الاقطاعية ، أي أملاك التاج ، إلى جانب دخوله من قبل أفصاله المنتشرين في ولايات المملكة ، وأيضاً من دخول المحاكم الملكية . وليس للملك الإقطاعي عاصمة ثابتة ولا مركز للحكم دائم ، وإنما هو وحاشيته يتنقلون دواماً من قلعة إلى أخرى ، وتتحرك مع الموكب الوثائق الملكية والخزانة أيضاً . وقد كشفت لنا وثيقة من

عصر الملك هنري الأول في انجلترا بعنوان « دستور دار الملك » (Constituto Domus Regis) عن طبيعة هذا البلاط الملكي المتجول ، فهو يجمع بين كبار الموظفين مثل كبير الأمنـاء وصبية يسهرون عـلى مواقد التدفئة وغسالات أيضاً . ولكل من هؤلاء نصيبه من « التموين الملكي » ، من خبز ولحم ونبيذ وشموع . وبطبيعة الحال كان كبار الموظفين في البلاط يتلقون إقطاعات أرضية مقابل خدماتهم . ويقف على رأس هؤلاء الموظفين « مستشار » الملك (Chancellor) ، وهو عادة كبير رجال الدين في القصر (Royal Chaplain) ، ويقف على قدم المساواة معه ي الأهمية كبير الأمناء (Dapifer) الذي يشرف على الصالة الملكية (aula) وعلى مائدة القصر ، ثم هنالك الموظف المنوط بالاشراف على الحجرة الملكية (Camera) وقد عرف باسم « شمبرلين » (Camerarius) وهو في نفس الوقت يشرف على خدم الملابس الملكية وعلى خدم الحمامات الملكيـة (aquarius) . ثم يأتي بعد هذا أمين الخزانة الملكية ، التي كانت توضع في صندوق خاص في حجرة نوم الملك . وهنالك موظف يشرف على الحمور والفواكه (Pincerna) ، ويساعده في مهامه نفر من حملة الكؤوس وأمناء المخازن واخصائيون في انتقاء الفواكه الطيبة . ثم هنالك « الكونستابل » (Constable) الذي يشرف على الحرس الملكي وخدم اسطبلات الخيول ، ويعينه في مهامه « المارشال » (marshal) الذي كان واجبه حفظ النظام والانضباط داخل القصر الملكي . وإلى جانب هؤلاء كان هنالك خدم الصيد من حراس كلاب الصيد ومدربيها ومن المشرفين على تربية الصقور ، إلى جانب نفر من المتمرسين في صيد الذئاب والوعول والقطط البرية (Catatores) [١٤] .

كان بلاط الملك الإقطاعي أشبه ما يكون بدار للحضانة ، يتدرج فيها

---

(14) **Black Book of the Exchequer, (ed. Hearne), pp. 341-59.**

الموظف الماهر حتى يحتل أرفع المناصب . وكثيراً ما دفع كبار النبلاء مبالغ طائلة من المال للملك ليسمح لإبن من أبنائهم بالخدمة في البلاط «كي يتمتع بحماية الملك ويتدرب على يد موظفيه »(١٥) .

ولم يكن الملك الإقطاعي في أول الأمر أكثر من « الأول بين أقرانه » من السادة الإقطاعيين الآخرين من كونتات وأدواق (Primus inter Pares) ، ولذا فإنه كان يتحتّم عليه أن يحصل على تأييدهم له في سياسته في الخارج والداخل ، وكان هذا يتم داخـــل « مجلس الملك » (Curia Regis) المؤلف من النبلاء وجميع بارونات الملك ، أي أفصال التاج . وهو مجلس إقطاعي النشأة يضم كبار الأفصال من البارونات وكبار رجال الدين مـــن الأساقفة ، وهم أنداد البارونات في السلم الاجتماعي ، إلى جانب كبار موظفي التاج وهم المستشار الملكي ورئيس الخزانة وكبير الأمناء .

كان مجتمع هذه الملكيات مجتمع حرب ، وهو إن لم يكن يمارسها كل يوم فإنه يستعد لها كل ساعة . ولقد تلقى البارونات إقطاعياتهم الكبرى من التاج مقابل الخدمة العسكرية بأنفسهم وبفرسانهم (Servitium debitum) ولم يكن الجيش الإقطاعي كبير الحجم ، فهو في انجلترا على عهد النورمان لم يكن يزيد في عدده عن سبعة آلاف من الفرسان . وكان على الفارس أن يؤدي الخدمة العسكرية ، أي القتالية ، لمدة أربعين يوماً في العام ، وإن كانت بعض الوثائق توضح أن هذه المدة كانت محددة على أساس أوقات السلم ، أما في وقت الحرب فقد كان على الفارس أن يخدم لمدة شهرين كاملين (١٦) .

(15) Pipe Roll 28, Hen. II, p. 46 : «In protectione Regis ut clericus suus».

(16) Collectanea Topographica et Genealogica, (ed. Madden, Bandinel, and J. G. Nicholos), ii (1835), 163 : «tali divisione quod si werra et inveniet mihi unum militem procuratim duobus mensibus et si pax est XL diebus ad tale servitium quale milites baronum terre facere debent rationabiliter.»

وإذا ما استمرت الحرب لمدة أطول من الشهرين ، فإنه لا يجوز للفارس أن يترك ميدان القتال ويتخلى عن الملك ، بل عليه أن يبقى في الميدان ولكن على نفقة الملك . وفي القرن الثالث عشر ابتدع نظام يدفع الفارس بمؤداه مبلغاً معيناً من المال إلى التاج عرف باسم (Scutage) للاعفاء من الخدمة في الميدان . وقد بدأ هذا النظام أولاً مع رجال الدين من الأفصال الملكيين ، ثم تطور ليشمل العلمانيين أيضاً . وترتب عن هذا أن أفصال الملك الذين يدفعون هذا المبلغ يحصلونه بدورهم من أفصالهم الأقل وهكذا .

إن أوضح ما يميز العلاقات في المجتمع الاقطاعي للعصور الوسطى هي تلك العلاقات المبنية على صلات الدم . وقد عرفت هذه في فرنسا باسم « النسب » (linage) وأحياناً باسم « الأصدقاء » (amis-Freunde) . وهناك وثيقة من إيل دي فرانس (Ile de France) ترجع إلى القرن الحادي عشر تقول الآتي : «أصدقاء فلان ، أي والدته وإخوته وأخواته وسائر أقاربه بصلة الدم أو عن طريق الزواج»[17] . ويصل الولاء في المجتمع الإقطاعي إلى ذروته إذا التحمت بصلة الدم وشائج يمين الطاعة . وأمام المحاكم كان القريب بصلة الدم هو خير معين وشفيع في مساعدة المدعى عليه. وفي مجتمع مثل هذا المجتمع تنمو بطبيعة الحال مشاعر الانتقام وطلب الثأر (Vendetta) ، وقد وضحت هذه المشاعر بوجه خاص بين الفريزيين (Frisians) حيث كانت جثة القتيل تبقى دون أن تدفن حتى ينتقم له أهله من القاتل[18] . ونطالع في أحد المصادر أن واحداً من الفرسان في سنة ١٢٦٠ اسمه لويس ديفو (Defeux) تعرض لطعنة سكين على يد شخص آخر ، ولما تقدم الأول بشكاية الثاني ، ظهر الخصم ولم ينكر الجريمة ولكنه قال بأن قريباً للويس سالف الذكر قد اعتدى عليه منذ زمن . كذلك نعلم أن مشادة كلامية بين اثنين من نبلاء برغنديا قد جرت

(17) Cartulaire de Saint Madeleine de Davron : Bibl. Nat. Ms Latin 5288-fol. 77 vo.
(18) Harinulf, Vita Arnulfi episcopi, M.G.H. S.S.(XV, p. 889.

على العائلتين ثأراً ودماً دام ثلاثين عاماً ، وفقد أحد البيتين في هذا الصراع الدموي أحد عشر رجلاً[19] . وقد ظهرت ملاحم شعبية تمجد أعمال الانتقام وطلب الثأر ، وأشهر تلك الملاحم ما كتب عن الصراع الدموي بين آل جروي (Groys) وبيت تافاس (Tavas) ، وكذلك بين عائلة لورين (Lorrains) وأهل بورلاليه (Bourlalais) .

إلى جانب صلات الدم تولدت في الإقطاع صلة أخرى لا تقل أهمية عن سابقتها ، وقد عبر العصر عن هذه الصلة بعبارة « فلان من الناس هو رجل السيد فلان » (Homo) : فالكونت هو « رجل الملك » ، والفارس بدوره « رجل الكونت » . ولفظة « رجل فـــلان » شائعـــة الاستعمال في المجتمع الإقطاعي إلى حد أنها تقف بمثابة لسان العصر . وهنالك وثيقة ترجع إلى القرن الحادي عشر تحمل شكوى بعض الراهبات إلى دوق نورمانديا يطلبن فيها إلى الدوق أن يتدخل لأن « واحداً من البارونات الأقوياء قد أجبر « رجالهن » على الخدمة في قلاع « رجاله » . والواضح أن كلمة « رجالهن » هنا لا تعني شيئاً بالنسبة للراهبات سوى « الفلاحين » الذين يعملون في الأراضي التابعة لديرهن[20] .

إن هذا « الولاء » (Homage) يعبر عن حقيقة كانت قائمة بالفعل . ألا وهي وجود طرفين ، الأول يرغب في أداء الخدمة ، والثاني يحتاج إلى من يقدم إليه هذه الخدمة . ويتم الاتفاق بين الطرفين وفق مراسيم خاصة أبرزها أن يضع التابع يديه بين يدي السيد ثم يتلقى قبلة العهد والاتفاق . والولاء تقليد جرماني الأصل يرجع إلى لفظة Mannschaft ، وقد أدخلت عليه في العصر الكارولنجي خصائص دينية كالقسم على الكتب المقدسة أو الآثار الدينية ، وبذلك تولدت كلمة « الطاعة » (Fealty) أو « الوفاء » (Treue) .

---

(19) Ralph Glaber, (ed. Prou), II c.x.

(20) Haskins, C.H., Norman Institutions, Cambridge, Mass. 1, 1918, (Harvard Historical Studies, XXIV, p. 63).

ويجب ملاحظة أن « الولاء » – في بداية الأمر – لا يكون إلا لشخص واحد ، لأن مراسيمه تجعل من الشخص « رجلاً » لهذا الشخص بالذات دون سواه من الناس . أما « الطاعة » فقد تكون لأكثر من شخص واحد . ومن هنا فإننا نصادف في المصادر المبكرة مراسيم « الطاعة » دون أن تقترن بمراسيم « الولاء » ، غير أن طقوس « الولاء » لا بد وأن تقترن بها أيمان « الطاعة » ، ونظراً لأهمية عنصر « الولاء » فإن طقوسه كانت تتم دواماً قبل مراسيم « الطاعة » .

إن مراسيم الولاء والطاعة هي التي تقنن العلاقات بين السيد (Suzerain) والفصل (Vassal) ، وكانت تكتمل بهما عناصر « العقد » الإقطاعي . وكان على الفصل أن يركع أمام السيد ، ثم يضع يديه داخل يدي السيد ، ثم يقسم له على أن يبقى له « أميناً في كل الأمور ، وأن يخدمه بكل إخلاص » ، ويؤكد انه بذلك يصبح « رجله » (Homo) [٢١] ، الذي يتحلى « بالطاعة » (Fealty) [٢٢] . وهنا يطبع السيد قبلة على وجنة الفصل ويعلن قبوله « تابعاً » له ، ثم يقطعه بالأرض (Seisin) [٢٣] . وقد ورد في « أحكام » الملك لويس التاسع نص يلقي الضوء على هذا القسم ، الذي يجري في الآتي : « سيدي ، هاأنذا أصبح رجلك وإني أعدك بالولاء كسيد لي في المستقبل ، أمام كافة الناس من يحيا منهم ومن يموت ، وسوف أقدم لك كل الالتزامات التي يتطلبها واجب الإقطاع ، وأقدم لك العون فأنت سيدي » . ويرد عليه السيد بقوله : « وأنا أقبلك وأتخذك « رجلاً » لي ، وأطبع عليك هذه القبلة علامة على القبول ، ومصداقاً على حقوقي وحقوق الآخرين ، وفقاً للتقاليد

(21) Homage : Formal and public acknowledgement of allegiance, wherein a vassal declared himself the man (Homo) of the lord, and bound himself to his service. — Latin origin: Hominaticum.

(22) Fealty: Obligation of fidelity on the part of a feudal tenant or vassal to his lord. — Latin origin : fidelitatem.

(23) Seisin: land, possession — French origin: Saisine = v. saisir = to hold, possess.

السائدة في مختلف المناطق »[٢٤] .

إن مراسيم الولاء والطاعة توثق العلاقات بين الفصل وسيده ، غير أن هذه العلاقات تسقط عند وفاة أحد الطرفين حتى بعد أن ظهر نظام الوراثة في مجتمع الإقطاع . وكان يتحتم في حالة وفاة أحد الطرفين أن تعاد هـذه المراسيم من جديد لأنها علاقة بين طرفين على قيد الحياة . ومن هنا لا يمكن أن تتم هذه المراسيم بالنيابة أو الوكالة ، كما أنها ليست من حق كل أفراد المجتمع ، وانما هي وقف على طبقة النبلاء وحدهم .

لقد تولدت هذه النظم كما سبق أن بينا بعد انهيار سلطة الحكومة المركزية في فرنسا ، في جو محفوف بخطر التهديد الخارجي من قبل الغزوات المتبربرة في القرن التاسع من جانب النورمان والماغيار . ولم تعد الملكية بقادرة على تقديم الحماية للناس ، وكانت العائلة بدورها عاجزة عن حماية أفرادها من غائلة الزمن . وبات كل فرد من حيث هو يحتاج إلى من يبسط عليه جناح الحماية ، وحتى الأقوياء أصبحوا هم أيضاً في حاجة ماسة إلى أتباع يشدون بسواعدهم من أزرهم . ولم يكن هؤلاء الناس وهم يقيمون تلك العلاقات التلقائية والتي أملتها الظروف القاسية يخططون أو ينفذون نظاماً قد تصوروه مسبقاً . ولذا فإن الاجتهاد في البحث عن جذور الإقطاع عند الرومان أو الجرمان — وإن كان يفيد في إلقاء المزيد من الضوء على تلك العلاقات — لا يكفي لشرح تلك الظاهرة الإقطاعية ، التي لا بد من التأكيد على أنها من إملاء الظروف قبل كل شيء . ولعل المثل القائل « بأن الناس يشبهون أزمانهم أكثر من آبائهم »[٢٥] يصدق هنا تماماً .

كان من المتعارف عليه في بداية الأمر أن يكون الفصل تابعاً لسيد واحد ، ولكن ابتداء من سنة ٨٩٥ ، وفي بلدة تور على وجه التحديد ، صار مـــن

(24) University of Penna. «Translations and Reprints». First Series, IV, 3; Documents illustrative of Feudalism, p. 21.

(25) «Men resemble their own times more than they do their fathers.»

الممكن للفصل أن يخدم أكثر من سيد واحد . وتطور الأمر بعد ذلك حتى إذا وصلنا إلى القرن الثالث عشر نسمع عن أفصال يخدمون عشرين من السادة في آن واحد . وقد أثارت هذه الظاهرة سخط الكثيرين ومن بينهم الملك لويس التاسع الذي كثيراً ما كان يندد بهذا التيار ، مستشهداً بنصوص دينية من قبيل « لا يحق لرجل أن يخدم سيدين معاً » . على أنه لا بد من القول أن الذي ولد هذه الظاهرة وساعد على نموها هو واقع الظروف الاقتصادية ، وإلحاح الأفصال على توريث الأرض التي يتلقونها إقطاعاً إلى ذويهم من بعدهم . وبذلك فان المسألة قد وضحت على أنها صفقات اقتصادية لا مجرد طقوس وعقود إقطاعية. غير أن هذا الوضع من تعدد السادة بالنسبة لفصل واحد قد خلق صعوبات بالغة في حالة قيام حرب بين سيدين لفصل ما ، فمع أيهما كان على الفصل أن يحارب . هنا تدخل رجال القانون، وحاولوا الاجتهاد بقولهم بأن الفصل ملزم بالمحاربة في صف السيد الذي أقطع الفصل أرضاً في تاريخ أسبق . كما قال البعض الآخر بأن الفصل ملزم بالمحاربة في صف السيد الذي أقطعه إقطاعاً أكبر بغض النظر عن تاريخ هذا الإقطاع أو أسبقيته . واستند الفريق الثاني على سابقة تاريخية وقعت سنة ٨٩٥ : فعندما طلب رجال القانون في سان مارتن من كونت لي مانز (Le Mans) أن يؤدب واحداً من أفصاله المشاغبين ، رد عليهم بقوله « إن هذا الرجل يخضع بدرجة أكبر لروبرت رئيس الدير لأنه قد تلقى منه إقطاعاً أكبر » . كذلك جاء من ينادي بأن الفصل ملزم بمساعدة السيد الذي يكون في حالة دفاع عن نفسه أو أرضه أو قلاعه أكثر من ذلكم السيد الذي يقوم بحرب عدوانية أو توسعية أو من أجل قضية أحد أقاربه . واتفق على أنه يحق للفصل أن يحارب في صف سيد واحد ، على أن يبعث للسيد الآخر بمعونة مالية أو ببعض الفرسان على نفقته الخاصة . غير أن الواقع يؤكد أن الفصل وحده هو الذي يحدد مع من يحارب وضد مَنْ من السادة ، وذلك بطبيعة الحال وفقاً لمصلحته هو قبل كل شيء ، بغض النظر عن العرف وأحكام القانونيين وأهل الدين .

ويجب ألاّ يغيب عن بالنا أننا أمام مجتمع عجزت فيه الدولة والعائلة عن تقديم ضمانات للفرد ، فسقطت في تلك الظروف رابطة الانتماء ، ولم يكن هنالك من مخرج لالتماس هذه الضمانات إلاّ عن طريق التبعية الإقطاعية . ولما أن تعقدت العلاقات الإقطاعية بفعل الظروف ، ابتكر أهل العصر نمطاً جديداً من التبعية ظنوا أنه اكثر وثوقاً من السابق ، وأطلقوا عليه « التبعية العليا » (Liege homage) [٢٦] . والكلمة مشتقة من أصول فرنجية ، ويقابلها في اللغة الألمانية كلمة Ledig بمعنى « الكامل » أو « النقي » أو « المطلق » ، وقد ترجمها كتاب حوليات الراين إلى اللاتينية بمعنى « التبعية المطلقة » (absolutus) . وكان لا بد من ظهور هذا التعبير بمفهومه « المطلق » ليحسم التعقيد الذي أصاب العلاقات الإقطاعية نتيجة لتبعية الفصل لأكثر من سيد واحد . وتظهر هذه الكلمة لأول مرة في مقاطعة آنجو (Anjou) سنة ١٠٦٤ ، ومنها انتشرت فيما بعد إلى نورمانديا وبرغنديا وبيكاردي . كما نصادف نفس الكلمة في أعمال مؤتمر كليرمونت الصليبي سنة ١٠٩٥ . ويرادف هذه الكلمة في أسبانيا لفظة Soliu ، وإن كان مدلولها غير واضح في كل من ايطاليا وألمانيا . وهكذا تحايل أهل العصر على ظاهرة تعدد السادة لفصل واحد بأن ميزوا بين « الولاء المطلق » والولاء « العادي » (Simple Homage) خاصة في وقت الحرب ، وأصبح الفصل ملزماً بالوقوف في صف سيد واحد في ميدان القتال ، وهو ذلكم السيد الذي يدين له وحده بالولاء المطلق ، بغض النظر عن تبعية ذلك الفصل لأي عدد آخر من السادة .

غير أن الآفة القديمة التي ساعدت على تدهور نظام التبعية القديم سرعان ما سرت لتأتي على النظام الجديد في « السيادة المطلقة » ، وتلكم هي إلحاح الأفصال على توريث اقطاعياتهم لذويهم من بعدهم . ولتحقيق هذا المأرب أخذ الأفصال في السعي نحو التبعية لأكثر من سيد واحد « مطلق » . ومن

(26) Liege homage : homage which could only be taken to one's chief lord. — German origin : ledig = absolutus.

الجانب الآخر بات السادة يصرون على أن يقسم لهم أفصالهم في حفل مراسيم الإقطاع أيمان « السيادة المطلقة » . واختطلت الأمور على السيد والفصل جميعاً، ولم يفلح نظام السيادة «المطلقة» في الاستمرارية رغم هذه التعقيدات سوى في انجلترا على عهد حكم النورمان وفي مملكة بيت المقدس الصليبية ، ففي هاتين المملكتين أصر الملك على أن يقسم الأفصال جميعاً للتاج وحده يمين « السيادة المطلقة » ، وبات هذا الحق وقفاً على الجالس على العرش دون سواه . إن التزامات الفصل تجاه سيده عديدة ، ويأتي في مقدمتها الخدمة ، والعون ، والحماية ، وهي جميعاً ألفاظ غامضة وغير محددة ، ولذا فإن بعض العقود الإقطاعية في القرن الحادي عشر كانت تكتفي بالنص على « أن لا يقدم التابع على إلحاق الضرر بسيده » . ويلاحظ أن الفصل كانت في وقت واحد تابعاً لسيد أعلى وسيداً على أتباع أقل في التدرج الهرمي . ولذا فإنه عند ذهاب الفصل للخدمة في الميدان بجوار سيده ، يصطحب معه أتباعه من الفرسان الأقل درجة . ولدينا أمثلة على هذا من مجتمع القرن الحادي عشر ، فقد كان أسقف بايوه (Bayeux) فصلاً لدوق نورمانديا ، ولكنه في نفس الوقت كان سيداً على مائة من الفرسان الأقل . وفي وقت الحرب كان الأسقف يصطحب عشرين فارساً فقط لمساعدة الدوق النورماندي ، أما إذا كان الدوق بدوره يطلب عون الأسقف للوقوف بجواره في حرب في صف الملك الفرنسي — وهو السيد المطلق لدوق نورمانديا — فإن الاسقف لم يكن يصطحب معه إلى الميدان سوى عشرة من الفرسان ؛ لأن الدوق لا الملك الفرنسي هو السيد « المطلق » للأسقف .

فالخدمة إذن هي الخدمة العسكرية كفرسان إلى جانب السيد ، وقد ذكرنا أنها كانت تؤدى في مدة تتراوح بين الأربعين يوماً والشهرين كل عام .

أما العون فيقصد به المساعدة المادية للسيد ، وهي كلمة فرنسية الأصل (taille) . وفي بداية الأمر كان العون يقدم طواعية من جانب الفصل في صورة هدايا تعطى طواعية ، وقد ظلت هكذا في كل من لومبارديا

وألمانيا دون تعديل . ولكن في فرنسا تطور مدلول الكلمة ، وصارت أكثر وجوباً على الطبقات الأقل في السلم الإقطاعي ، بمعنى أنها صارت إجبارية على الفصل . وقد حددت لدفعها مناسبات خاصة كوقوع السيد في الاسر ، وتنصيب ابنه الأكبر فارساً ، وزواج كبرى بناته . كذلك كان على الفصل أن يقدم مبلغاً معيناً من المال إلى السيد وقت وراثة الإقطاع ، وعرف هذا باسم « الحلوان » أو « وفاء الحق » (Relief) ؛ ذلك لأنه من الناحية النظرية كانت الأرض ملكاً للسيد ، فهي تعود إليه عند وفاة الفصل . ولكي يرثها الابن عن الأب المتوفى لا بد له من دفع « وفاء الحق » للسيد لإتمام مراسيم العقد الإقطاعي من جديد .

أما عن الحماية فهي أن يتعهد الفصل بالعمل على حماية حياة وأرض وقلاع وشرف أسرة السيد . وفي مقابل هذا يتعهد السيد بأن يشمل الفصل بالحماية أيضاً وبأن يعامل أسرته بالاحترام والشرف .

وفي بداية الأمر لم يكن السيد ملزماً بإعطاء تعهد كتابي بالتزاماته نحو أفصاله ، وإنما اكتفى بكلمة الشرف (word of honour) أمام بعض الشهود ، وإن كانت القرون اللاحقة قد شهدت مواثيق مفصلة تعدد واجبات وحقوق الطرفين . وكان على السيد أن يحافظ على حياة وشرف الفصل حتى بعد وفاة الأخير ، كما أنه مطالب بإنصافه من أي ظلم قد يقع عليه ولو كان هذا الظلم صادراً من جانب السيد نفسه .

إن نظام السيادة والتبعية هذا كان البديل الحتمي للانتماءات العائلية التي تمزقت بفعل عوامل العنف والشر في الداخل ومن الخارج . وقد أحيط هذا النظام أو بالأحرى تلك العلاقات الإقطاعية بالتقدير الوافر ، إلى حد أن القانون الانجلو سكسوني في القرن العاشر كان ينظر إلى الشخص الذي « لا سيد له » على أنه خارج على القانون (Outlaw) ، بل إن الصلات التي أخذت تتوطد بين السيد والفصل غدت أقوى من صلات الدم ، وليس أدل على هذا من

أن القانون النورماندي كان يعاقب جريمة قتل أحد السادة لواحد من أفصالهم بنفس القدر الذي يعاقب به جرائم قتل الأهل . وقد جرت هذه الصلات الإقطاعية معها فكرة من الثأر لمقتل أحد الطرفين على يد غريبة ، وصارت كلمة « الأخذ بالثأر » (ultor) اللاتينية مرادفة عند أهل العصور الوسطى لكلمة « الحامي » الجرمانية الأصل (mundporo) . وقد ظلت تلك السمات التي ربطت بين « التبعية » وصلات الدم واضحة في كل محاكم العصور الوسطى ، وكانت القاعدة في انجلترا في القرن الثاني عشر بأنه لا يجوز التبليغ عن جريمة قتل إلاّ إذا كان القتيل قريباً أو فصلاً أو سيداً لشهود الجريمة . ولهذه القاعدة جذور جرمانية نجدها في ملحمة بيولف (Beowulf) ، فعندما اغتيل الزعيم كان لأتباعه الحق كل الحق ليس فقط في المطالبة بدمه وإنما أيضاً في المطالبة بنصيب من « دية » القتيل (Wergild) .

هذا وكان الفصل كثيراً ما يعهد بابن من أبنائه إلى السيد ليتولى تربيته وإعداده على خلق الفروسية في القلعة ، ويصبح السيد مسئولاً تماماً عن ذلك الابن في حالة وقوع مكروه لأبيه : والأمثلة على ذلك كثيرة في سيرة الشاب آرنولف من جين (Guines) مع الكونت فيليب صاحب فلاندرز ، وفي سيرة الشاب جارنييه من نانتويل (Nanteuil) مع الامبراطور شرلمان [٢٧] . إن هذا النظام أشبه ما يكون « بالتبني » (Fostering) ، وهو معروف في ايرلندة والدول الاسكندنافية .

في مجتمع مثل هذا المجتمع لم يكن الزواج يتم باختيار الفرد ، فقد كان الاختيار دواماً من حق ولي الأمر الذي كان يبحث عن صفقة مناسبة لابنه أو ابنته ، ونطالع هذا الموقف حرفياً في قصيدة « سان الكسيس » (St. Alexis) حيث تقول : « إن الأب يود أن « يشتري » لابنه ابنة » لأحد النبلاء

(27) «When to the woods the king repairs, the child goes too; and when to rest the king retires, Garnier is there, Beguilding him with song and old heroic lays».

الموسرين » . وإذا كان الأمر كذلك بالنسبة للابن ، فإنه بالضرورة كان أشد وأنكى بالنسبة للإبنة : وتنص القوانين القوطية — التي ترجع إلى القرن الخامس — على أنه « إذا توفي محارب تاركاً من ورائه ابنةً وريثة ، فإنها تصبح تحت سيطرة السيد الذي يجد لها زوجاً مناسباً . أما إذا اختارت الابنة لنفسها زوجاً آخر لا يقبله السيد ، فإن عليها أن ترد للسيد جميع الأراضي والهبات التي كان والدها قد تلقاها من ذلكم السيد »[٢٨] .

إن العقد الإقطاعي يبرم بين رجلين ينتميان في كل الأحوال إلى طبقة عالية ، ولكنهما من درجات اجتماعية متفاوتة . وقد وضح هذا التفاوت في القانون النورماندي الذي يقضي بعقوبة « القتل» على السيد الذي يغتال فصله ، بينما هو يؤكد عقوبة « الشنق » حتى الموت على الفصل الذي يلوث يديه بدماء سيده .

وفي حالة خرق أحد الطرفين النصوص الواردة في العقد، يصبح الإقطاع لاغياً (forfeit) . ولكن هذا يتم أيضاً وفق مراسيم خاصة ، تعود هي الأخرى إلى جذور جرمانية سالية (Salian) ؛ فعندما يتمرد ابن على أبيه عند الجرمان القدامى يقف الأب أمام حشد كبير من وجهاء القبيلة ليعلن تنكره لابنه بسبب عقوقه . وقد نقل المجتمع الإقطاعي هذا التقليد عن الجرمان ، وصار « فسخ» العقد الإقطاعي يتم من جانب السيد أو الفصل في حضور الطرفين أمام حشد من الشهود ، ويقف الطرف المتظلم ليلقي بخصلة من شعره أو بخيوط من ردائه على الأرض ، علامةً على بطلان العلاقةالقديمة . ولما كانت هذه المراسيم لا تخلو من لحظات الحرج والخروج عن سلوك الصواب ، فإنها كثيراً ما كانت تنتهي « بالتحدي » (défi) ثم المبارزة لحسم الخلاف . وإذا ثبت أن الخطأ وارد من جانب الفصل تصادر الإقطاعية وترد للسيد (Commise) ، مثلما فعل فردريك بربروسا ملك الألمان مع واحد من أعتى

(28) Codex Euricianus, c. 310.

أدواقه وهو هنري الأسد، ومثلما فعل أيضاً فيليب أغسطس ملك فرنسا مع فصله يوحنا المقلس (Lackland) ملك انجلترا .

أما إذا كان الخطأ من جانب السيد ، وثبت هذا أمام الشهود ، فإن للفصل الحق في أن ينقل التزاماته إلى سيد السيد . وفي التقاليد الكارولنخية لا يصح للفصل أن يتخلى عن سيده إلاّ في حالة واحدة وهي « أن يضربه السيد بالعصا » فتلكم معاملة صنف آخر من الناس دون أبناء النبالة بكثير ! !

وإلى جانب هذا فقد كانت هنالك دواماً « محكمة السيد » لتفصل بين الطرفين المتنازعين . وهي تتألف من السيد نفسه رئيساً ومن بقية أفصاله كأعضاء . وغني عن البيان أنه كان من صالح الأفصال أن يقفوا في جانب « رفيقهم » الفصل ضد السيد – في حالة غبن يقع عليه – حرصاً على مصالحهم وعلاقاتهم بالسيد . ويجوز للفصل أيضاً أن يتظلم أمام محكمة سيد السيد ، وللأخير كل الحق في أن ينصفه إن هو أراد ذلك .

والواقع أنه برغم توافر تلك المحاكم ، إلاّ أنها لم تكن ذات فعالية تذكر ، ذلك أن المواقف جميعاً في ذلكم المجتمع الخشن العنيف كانت تحدد بالسيف وبالسيف وحده . ولعل المثل القائل « القوة هي الأحق » (Might is right) ينطبق على تلك العصور أكثر مما ينطبق على غيرها .

ورغم هذا الوجه القاتم من العلاقات بين السيد والفصل ، فإن وثائق العصر تحيط تلك العلاقات أيضاً بالكثير من مشاعر الاعتزاز والغبطة ، فهي عند أهلها أمتن الروابط ، والفصل بعد هذا كله هو المرادف لكلمة « الصديق » (amicus) و « المفضل » أو « المحبب إلى النفس » (dru) . إن السطور التالية من قصيدة « دون دي ماينس » (Doon de Mayence) تنطق بمشاعر المحبة وأواصر الصداقة بين السيد وفصله :

« لو أن سيدي يقتل ، فإني معه أموت
لو أن سيدي يشنق ، علقوني بجواره

لو أن سيدي يساق إلى المحرقة ، فإني احتضن اللهب
لو أن سيدي قد غرق ، ففي بطن البحر معه أرقد » [٢٩] .

والآن ننتقل لإلقاء الضوء على وثائق العصر لكي نتعرف على العلاقات بين السيد والفصل كما رسمتها تلك « المواثيق » أو « العهود » . يلاحظ أن صيغ الإقطاع قد ولدت أولاً في فرنسا ، ثم نقلها النورمان بعد غزوهم لانجلترا معهم إلى هناك . وعلى هذا فإن مواثيق القرن الحادي عشر ، سواء في بلدان القارة الأوروبية أو على الجزر البريطانية كانت تحمل عناصر مشتركة ليست بالقليلة . من بين الأمثلة وثيقة موجهة من سيد إقطاعي يدعى وليم بفريل إلى أقاربه وأهله وأصدقائه ، يحيطهم فيها علماً بأنه قد منح أرضاً إلى شخص يدعى ترستان وورثته مقابل خدماته وورثته ، إلى جانب تعهد ترستان بدفع أجر مادي أيضاً . كما أن الفصل ترستان مطالب فوق هذا بتقديم بعض الخدمات المتصلة بقلعة السيد ، هذا إلى جانب الخدمة العسكرية معه بمعدل « نصف أجر فارس » . وينتهي العقد باثبات أسماء الشهود الذين حضروا تحريره [٣٠] .

(29) Girart de Rousillon (trans. P. Meyer), p. 100:
«Se me sire est ochis, je voeil estre tués,
Et se il est pendu, avec il me pendés;
Se il est ars en feu, je voeil estre bruslés,
Et se il est noié, avec il me getés».

(30) Curia Regis Roll 88, m. 12 (printed by Eyton), Antiquities of Shropshire, xi. 35 (circe 1122) :
«Willemus Reuer de Dour Hammundo P. fratri suo et Willelmo P.' nepoti suo ac omnibus fidelibus suis hominibus Francis et Anglis nec non et amicis tam futuris quam presentibus salutem. Sciatis me donasse Turstin, dapifero meo et heredibus suis Geddingam et Daiwellam pro servitio suo de me et heredibus meis tenendas in feodo et hereditate — et sacha et socha et tol et theam et infangenethef in nemoribus et planis — in villa et vico et campis et pratis in aquis et omnibus locis pro servitio dimidii equitis, T. Waltero de la Haja et Waltero de Marisco et Hugone de Girund, et Pagano de Suruia.»

وهناك وثيقة أخرى ترجع إلى سنة ١١٥٨ في عهد الملك هنري الثاني في انجلترا، تتضح منها طريقة توريث الاقطاع للأتباع وشروط ذلك، وهي تجري كالآتي :

« هيو من بايو يحيي الكتبة والعلمانيين ، فرنسيين وانجليز ، ويحيي أيضاً سائر القوم الطيبين . اعلموا اني قد أعطيت ومنحت روبرت براباز وورثته بالايجار والتوريث ما يقابل نصف أجر فارس واحد في ميدول وكلمارش ، وهي الأراضي التي كان والده ريتشارد بن برنارد وهو نفسه قد تلقياها من والدي رانولف ، وذلك مقابـل نفس الخدمة التي كان هو ووالده يؤدياىها لوالدي رانولف . وإني أقرر أنه يتقلد هذه الأرض تماماً مثلما كان يتقلدها والده بأحسن الظروف من والدي رانولف ، وذلك حتى يتأتى في مقابل خدماته لنا بفارس واحد . واعلموا أيضاً أنه يتحتم عليه (روبرت براباز) أن يقوم ببناء جزء في سور قلعتنا في ولبورن ، وذلك في مقابل تصديقي واعترافي له بإقطاع الأرض سالفة الذكر » (٣١).

(31) Stenton, F.M., English Feudalism, Appendix, no. 31, p. 274 : «Hugo de Baius, clericis. Iaicis. Francis Anglis, omnibusque suis bonis hominibus. Salutem. Notum sit nobis me didisse. et concessisse in feudo et hereditate. Roberto Rabacio et suis heredibus dimidum feudeum unius militis. scilcet in Merewella et in Chailesmers quod Ricardus filius Bernardi pater eius et idem Robertus Rabacius tenuerunt de patre meo. Rannulfo, faciendo idem servicium quod ipse pater eius patri meo Rannulfo facere solebat, et volo ut illam terram teneat quam melius atque liberius ipse pater eius de patre meo Rannulfo tenuerunt. Quoodusque perfecerim ei plenarie feudum cuiusdam militis. Sciatis etiam proconcessu recognicione predicte terre se facturum mihi unam percam in muro castelli Welleburnie. Teste Colgerimo sacerdote. Berewaldo sacerdote. Azone de Santo Luca. Superio de Baius. Martino fratre eius. Roberto de Chaeres. Herberto de Sancto Lot. Gazone. Robgro de Punchardum. Wigoto de Brancewella. Willelmo Gilinello. Anfrido Roberto de Baius. Willelmo de Sarta Rogero Pharaone. Osberto de Chaam. aliis multis (circa 1158). (Equestrian seal.).

وأهم ما يلفت النظر في هذا النص هو التفريق بين الخدمات التي يؤديها الفصل لسيده كبناء جزء من سور القلعة، وبين الشرط الأهم وهو الخدمة العسكرية . كذلك يلاحظ أن القاعدة قد ألحت في القرن الثاني عشر على ضرورة إبرام عقد إقطاعي جديد مع السيد عند وفاة الفصل ، وذلك ضماناً لوراثة الارض إقطاعياً لصالح ابن المتوفى.

وفي بلدان القارة كان يتحتم على التابع أن يدفع لسيده مبلغاً من المال عرف باسم « الحلوان » **(Relief)** وذلك عند تجديد العقد ، ولكن وثائق العصر في انجلترا لا تبين وجود هذا التقليد كقاعدة عامة، وإن كانت بعض العقود قد نصت عليه صراحة. ومن هذه الحالات الاستثنائية في انجلترا نعلم أن « الحلوان » كان يتدرج ما بين خمسة شلنات ومائة .

ويدل هذا على أن كل عقد إقطاعي كان يمثـــل حالة خاصة ، أي أنه لم تكن هنالك قاعدة واحدة تحكم قيمة هذا « الحلوان » . ولدينا نص على لسان سيد إقطاعي اسمه جلبرت وموجه إلى رجاله وأتباعه، يعلمهم فيه بأنه قد قلد فصله روبرت قطعه أرض في سلجريف (نورثها مبتون شاير) بالوراثة عن أبيه ، مقابل خدماته وخدمات أسلافه ، على أن يدفع « حلواناً » قيمته خمسة شلنات . ويعني هذا أن تجديد العقد لابقاء الاقطاع في يد روبرت كان في مقابل « حلوان » قدره خمسة شلنات . وتكمن أهمية هذا النص في أنه واحد من القلائل التي تنص صراحة على دفع «الحلوان » في بلد مثل انجلترا [٣٢] . ويقدر العلماء المختصون قيمة دخل الإقطاع الذي يتقلده فصل ما مقابل الخدمة

---

(32) **Stenton**, op. cit., Appendix no. 35, p. **277**:
«Gillebertus de Pinchenni omnibus hominibus suis amicis tam Francis quam Anglicis salutem. Sciatis me cognouisse reddidisse Roberto **de** Pinchenni heredibus suis terram Sulgrave de Helintonia **tenendum** de me heredibus meis eodem servitio quo pater eius **tenuit** de meo. Scilicet servitio militis dimidii. quietum de Relevatu. de omnibus occasonibus que inter nos antea fuerunt. pro quinque marcis quas mihi dedit. Hulus rei testes sunt...».

العسكرية بقوة فارس واحد بعشرة جنيهات سنوياً [٣٣] ، وإن كان البعض قد قدره بعشرين جنيهاً سنوياً ، من واقع بعض النصوص [٣٤] .

قلنا إن خدمات الفارس لسيده الإقطاعي تتضمن عدة وجوه ، أهمها الخدمة العسكرية بذات الشخص في صف السيد وقت الحرب ، والتي عبرت عنها وثائق العصر بلفظة expeditio . والغريب أننا لا نحصل صراحة على تفصيل لهذه الخدمة العسكرية من معظم المواثيق المبرمة بين الطرفين ، وانما نعثر على تفصيل لها من واقع العقود المبرمة مع البيوتات الدينية ، وهي ترد هنا سلباً لا إيجاباً ، بمعنى أن العقد ينص على إعفاء هذه البيوتات من الخدمة العسكرية التي تسرد واحدة بعد الأخرى . ومن بين النصوص المهمة في هذا الصدد عقد إقطاعي أبرم سنة ١١٨٤ في انجلترا بين سيد يدعى وليم ريتشارد ورهبـــان جماعة سان أنـــدرو في نورثهامبتون ، وهو يجري كالآتي :

« فليعلم الجميع ، في الحاضر والآتي ، أني أنا وليم بن ريتشارد قد أقطعت لرهبان سان أندرو في نورثهامبتون الأرض التي كان واليران قد تسلمها مني في سلجريف ، وهي تبلغ ثلاثين فداناً ، لكي تزرع كل عام ، الإضافة إلى خمسة قراريط أخرى . وهذه الأرض مقطعة من جانبي ومن جانب ورثتي مقابل نفس الخدمات التي كان واليران يؤديها لي ألا وهي : ثمانية شلنات عن الايجار السنوي ، وخمسة بنسات أجر للخفير . هذا إلى جانب الخدمات الأخرى التي يؤديها لي رجالي الأحرار ألا وهي : في حالة وقوعي ي الأسر عليهم فديتي ، وعليهم أيضاً مساعدة ابني الأكبر ليصبح فارساً ، وكذا المساعدة عند زواج كبرى بناتي . وإذا كان رجالي الأحرار يقدمون لي عوناً حراً ، فإنه يتحتم على رهبان سان أندرو أيضاً أن يقدموا لي ما يقابل تقلدهم الأرض

---

(33) Ibid., pp. 166-67.

(34) Vinogradoff, English Society in the Eleventh Century, 48: «Willelmus de Hastinges tenet xx libertas terre et unum militem feodatum de quibus non facit servitium nisi unius militis».

مني . على أنني قد قررت ألا أستدعيهم (الرهبان) إلى محكمتي إلا في حالة مخالفة في أمور خدماتي ، ففي هذه الحالة عليهم الحضور في يوم محدد في كلورث أو في سلجريف. وزيادة على ذلك فإني وورثتي نعفي الرهبان من التزام حراسة قلعتي في وندسور ، ذلك الأمر الذي كنت قد شكوتهم بسببه لأنهم لم يؤدوا ما كان عليهم من خدمات فيه مطلقاً من قبل ، على أنه في مقابل هذا الإعفاء من تلك الحراسة للقلعة فقد دفع إلي هنري رئيس دير سان أندرو مبلغ أربعين شلناً إلى جانب بيزانتين إلى ابني ووريثي روبرت. كذلك تعهد الرهبان بالبقاء على وفاء تجاه قيمة الايجار ، وتعهدوا أيضاً بأنهم لن يسعوا إلى التحايل أو الادعاء من أجل حرماني وورثتي من هذا الإيجار . وقد أقسم على هذا كل من هنري بن ارنوي ، وهيو بن ارمبرج باليمين نيابةً عن الرهبان ، وقد أقسم نيابة عني باليمين هيوبن كلورث . وقد تم إبرام هذا الاتفاق عندما كان رالف مورن شريف (نائباً للكونت) على مقاطعة نورثهامبتون »[٣٥] .

(35) Stenton, op. cit., App. no. 33, pp. 276-77:
«Sciant omnes tam presentes quam futuri quod ego Willelmus filius. Ricardi dedi et concessi monachis ecclesie sancti Andree de Northantona servicium illius terre quam Walterannus de me tenuit in Sylgrave. Scilicet xxx. acras de inlanda. unoquoque anno seminandas, et preter hoc v.s. virgatas terre tenendas de me et de heredibus meis per idem servicium quod Walterannus mihi inde solebat facere. Scilicet per octo solidos per annum de redditu. et v. denarios de waita et per alia servicia que liberi homines mei mihi faciunt. scilicet si opus fuerit. iuuabunt redimere corpus meum et facere militem primogentum flium meum. et ad maritandam primogenitam meam filiam. et si liberi homines mei commune auxiliam mihi dederint dabunt mihi secundum suam tenuram. Preterea concessi eis quod non summonebo eos ad placita mea. nisi pro defectu servicii mei et mue ponam eis diem apud Colewid' vel apud Suigravem. Preteita ego et heredes mei adquietabimus monachos per omnia de warda de Windsor' pro qua eis aliquando controversiam movi eo quod euam nunquam facerent. et prohas adquietacione Henricus prior

وإلى جانب الخدمة الفرسانية إلى جانب السيد ، كان على الفصل أيضاً أن يصاحب سيده في مواكبه ، وقد استخدمت الوثائق في هذا الخصوص لفظة **Chivalchia** ، وهي كلمة غامضة المعنى ظهرت أول الأمر في فرنسا ثم عرفها الانجليز بعد الغزو النورماندي لانجلترا ، وأحياناً نجد مرادفاً للكلمة هو **equitatis** . واللفظتان – كما هو واضح – مشتقتان من لفظة « الخيل » ، وتوحيان بمرافقة الفصل لسيده وهو يمتطي صهوة جواده في مواكب السيد في مختلف المناسبات .

كذلك كان على الفصل التزام في حراسة قلعة السيد **(custodia)** ، وتم الحراسة بالتناوب من جانب الأفصال العديدين التابعين للسيد . وقد لجأ بعض السادة إلى استخدام بعض الحراس لقلعته مقابل أجر محدد، وكان على الأفصال أن يدفعوا أجر هؤلاء الحراس ، لأن حراسة القلعة أصلاً كانت من بين واجباتهم الأصلية .

ولدينا وثيقة أصدرها سيد يدعى جيوفري من تورفيل إلى فصله يوحنا

---

sancti Andree quadraginta solidos mihi et Robert filio meo et heredi duos bizancios dedit. Monachi vero assecuraverunt me quod portabunt mihi fidem de feudo meo. et quod non querent artem vel ingenium unde ego aut heres meus a feudo nostro elongemur. Hos affidavit ex parte eorum. Henricus filius Ernewi et Hugo Filius Ermeburg'. et ex parte mea affidavit eis Hugo de Colewrth' hanc convencionem tenendam sine male ingenio. Hec concordia facta fuit tempore quo Radulfus Morin fuit vicecomes vidente comitatu de Northamtonshire. Hiis testibus Radulfo Morin Willelmo de Plumptona Ricardo fratre eius. Philippo de Daventre. Symone Basset Ricardo de Fardingestona. Henrico de Cogenho. Willelmo de Wigeton' Radulfo de Andeli. Rogero de de Bucle-willa Bartholomeo de Sullegrave. Philippo Clerico. Galfrido Bareard.. Roberto filio David. Roberto filio Hugonis de Chotes Bartholomeo filio Jordani. Randulfo fratre Helie-Waltero Laurencio. et multis aliis. (1183-4).»

من لي (Lee) يقطعه فيها بأرض مقابل القيام بحراسة قلعته، وهي تجري كالآتي :

« ليكن معلوماً لدى كل الناس المخلصين ، الحاضر منهم والغائب ، انني أنا جيوفري من تورفيل قد أعطيت إلى يوحنا من لي جزءاً من دومبني الكائن في وستون ، ومع هذا الإقطاع أعطيه أيضاً الطاحونة التي كانت تحت يد وليم. وقد أعطيت هذه الأراضي بالإيجار والوراثة ، معفاة من كل خدمة أو التزام، اللهم إلاّ أن يوحنا وورثته من بعده يتحتم عليهم القيام بحراسة قلعتي في وستون لمدة أربعين يوماً في وقت الحرب ، ولمدة ثلاثة أسابيع زمن السلم. وليكن معلوماً أيضاً أنني قد أقدمت على هذا العمل لأن يوحنا قد ردّ إلي ميراثه في جهة لي (Lee) ، وقد أعطيتها بدوري إلى رهبان بيت مسندن كصدقة. وقد رفع يوحنا يده كلية عن هذا الميرات وسلمه إلى الرهبان ، وتعهد بألا يتعرض لهذه الأرض بسوء ، بل إنه يؤمنها لهم بكل سبيل وضد كل الناس . وقد شهد على ذلك كل من رئيس دير مسندن ... الخ » [٣٦] .

---

(36) Stenton, op. cit., App. no. 42, pp. 281-82:
«Notum sit omnibus fidelibus presentibus et futuris quod ego Gaufridus de Turvilla dedi Iohanni de Leia unam hidem terre de meo diminio in Westona cum omnibus que ad ipsam pertinent. sicut prolocutum fuit coram me et coram hominibus meis, et cum hida dedi ei molendinum quod Willelmus tenuit cum omnibus que ad ipsum pertinent in terra et in prato. quod totum concessi ei in feudum et hereditatem. et heredibus suis libere et quiete ab omni servicio et exactione. preter quod Iohannes et heredes sui facient mihi stationem in Castello de Westona XL dies in tempore werre cum dextrario et runcino. et in tempore pacis iii ebdomadas. notum sit interea quod hoc ideo feci Iohanni quia reddidit mihi hereditatem suam. videlicet terram de Leia. Quam dedi canonicis de Messend' in elemosinam. Et predictus Iohannes eam clamavit quietem predictis canonicis. fide etiam firmavit acquietare eam canonicis pro posse suo contra omnes homines de se et quietamclamavit et fidefirmavit. Testibus abbate de Messend...».

وإذا وصلنا الى القرن الثالث عشر نجد أن السادة يستعيضون عن خدمة الأفصال في حراسة قلاعهم بمقابل مالي ، بواقع ثمانية بنسات – في انجلترا – عن حراسة الليلة الواحدة .

لقد كانت العلاقة بين السيد والفصل تقوم أساساً على الولاء والوفاء ، ذلكم الشعور الذي عبر عنه رولاند (Rolland) وهو يجتاز الصعاب ، بل الموت ، في قوله بأنه سوف يتحمل في سبيل سيده شرلمان « الحر والبرد جميعاً » . هذا وينص يمين الولاء عند الانجلو سكسون على أن يحب الفصل كل ما يحبه سيده وأن يكره كل ما يكرهه . وفي عالم الفرنجة كان أصدقاء السيد هم بالتالي أصدقاء للفصل وأعداء السيد له أعداء . وقد نظر أهل العصر إلى الموت في سبيل السيد على أنه ضرب من ضروب الاستشهاد ، يشتهي الفصل الأصيل أن يقدم عليه لينناله وسيفه في يده . ولقد أمنت المؤسسات الدينية في العصور الوسطى على هذا المفهوم الأخير : ففي سنة ١٠٣١ في مجمع ليموج وقف أسقف البلدة يؤنب فصلاً كان قد اغتال سيده بقوله : «كان الأحرى بك أن تموت في سبيل سيدك لا أن تقتله . إن التزامك بالشرف والعهد نحوه وموتك في سبيله يجعل منك شهيداً لله »[٣٧] .

لقد نظر المجتمع الإقطاعي إلى إقدام فصل على قتل سيده على أنه إثم كبير ، لا يحل له غفران . هذا ما أكده ألفرد العظيم للانجلو سكسون ، وما ثنى عليه هنري الأول في انجلترا النورماندية بقوله : « لا صفح لمن يقتل سيده ، بل عليه الهلاك في أبشع صورة » . ويروى أن فارسا من إقليم هينولت قتل سيده روبرت كونت قلاندرز ، ثم رحل الفارس إلى روما يطلب الغفران من البابا ، فأمر البابا بقطع اليد التي أقدمت على ذلكم الإثم ، ولكن يدي الفارس لم ترتعدا ندماً عند القطع ، فأمره البابا بأن يمضي بقية عمره في أحد الأديرة حيث أروقة الندم . وعندما بلغ الخلاف أشده بين سيد إبلين والامبراطور

(37) Migne, P.L., vol. CXLII, col. 1400.

الألماني ، نصح أصدقاء الأول إليه بأن يقوم باغتياله ، ولكنه رد غاضباً : « ويحكم ، إنه سيدي المطلق ، ومهما اشتط في الغضب علي ، فلن أخون عهد الولاء والطاعة » .

إن تلك المشاعر الفياضة بالوفاء سرعان ما انتقلت من القلاع إلى ساحات القضاء ، فإن اختلف الابن مع أبيه أو العكس ، عوبلجت القضية بمنظور إقطاعي من حيث عناصر الولاء والوفاء . بل إن شعراء الطروبادور في بروفنسال جعلوا من العلاقة الطيبة بين السيد والفصل أساساً لشروحهم لأبعاد الحب الطروبادوري . وقد وافق هذا الاقتباس الحال السائدة في كل قصة غرام ، فالمحب الولهان — في أغلب الأحيان — من طبقة أقل من طبقة المحبوبة « سيدة القلعة » . وقد وضح هذا جلياً في نصوص تلك الأشعار ، إذ أشار الشعراء إلى المحبوبة لا في صيغة المؤنث وإنما في صيغة الذكور فخاطبوها بقولهم « يا سيدي الجميل » (Bel Senhor) . ووجدت هذه الاساليب الإقطاعية طريقها إلى رجل الشارع ، فأصبح يقال في المثل الشعبي : « إن فلاناً أصبح فصلاً للشيطان » . ولم تفلت البيوتات الدينية في كتاباتها ومواعظها من لغة العصر ، فصار المسيح « فصلاً لله الأب » . وفي طقوس العبادة تحولت الصلاة من مجرد الركوع واليدان ممدودتان ، إلى ضم اليدين في خشوع تماماً مثلما كان يتم في مراسيم ولاء الفصل لسيده .

هذا عن الجانب المشرق في وجه العملة ، أما الوجه الآخر فإنه يصور تلك الحروب الدامية التي قامت بين الأفصال وسادتهم . وهذا لا يعني أن جميع الأفصال باتوا يشنون الحرب على قلاع سادتهم ، فالجميع قد أقسموا اليمين ، البعض له كانوا على الوفاء ، ولكن البعض كانوا للقسم جاحدين ، كما تنطق الأنشودة في صدق[٣٨] . إن هذه المعاني تشير إلى الروح السائدة في

(38) Couronnement de Louis:
«Là tous jurèrent le serment.
Tel le jura, qui le tint bravement;
Tel aussi, qui ne le tint point du tout». :

العصر ، فالجميع يعترفون بالعرف والقواعد في شكلها النظري ، ولكن سلوك الفرد في واقع الحياة اليومية كان شيئاً آخر تماماً ، وهنا يكمن التناقض في كل نظم العصور الوسطى . وللبحث في التدهور الذي أصاب العلاقة بين السيد والفصل يجب أن نتذكر أن نظام التبعية في صورته الباكرة كان يحتم على الأتباع الالتفاف حول زعيمهم في داره ، حيث كانوا يحيطون السيد (herr) بمشاعر الاحترام والمهابة ، فهو قائدهم ومورد رزقهم . وكان الأتباع بالنسبة للسيد بمثابة الرفاق (Gasindi) أو الأبناء (Vassi) أو الذين يعيشون على أرغفته (hlafoetan) . فالولاء هنا يقوم على صلات شخصية تجعل من السيد والأتباع أسرة واحدة .

غير أن تبدل الظروف أدى بالأتباع إلى أن يهجروا دار الزعيم ، لكي يتمكن كل منهم من السهر على حماية إقطاعه ، خاصة أمام غزوات النورمان والماغيار . وأمام الأخطار الخارجية المتوالية بدأت بعض مصالح السادة تتعارض مع مصالح بعض الأفصال .

يضاف إلى هذا أن نظام توريث الإقطاعات الذي أخذ به فيما بعد قد ساهم في إيجاد الأحقاد والضغائن بين الأسر الإقطاعية . ولم يكن الوريث لأرض ما يؤدي مراسيم الولاء والطاعة من جديد للسيد إلاّ لكي يضمن الحفاظ على قطعة الأرض التي كانت في يد أبيه ، وذلك بغض النظر عن موقف هذا الشخص تجاه سياسة أو سلوك السيد الإقطاعي . كذلك كان على الوريث ، لكي يضمن بقاء الأرض عن أبيه بتفويض جديد من السيد ، أن يؤدي نفس الالتزامات والخدمات التي كان يؤديها والده من قبل ، وهذه الالتزامات تتطلب خدمة عسكرية أو مهارة خاصة قد لا يتقنها أو يرغب في ادائها الابن مثلما كانت الحال مع الأب . ومن هنا فإن الشعور بحرية الاختيار قد أحبط عند الأبناء من ورثة الأراضي الاقطاعية وفق نظام التبعية . ولذا فإن الكثيرين من الأفصال الأقوياء والمشاغبين مالوا بسيوفهم على بعض السادة الضعاف ، واستولوا منهم على بعض الأراضي . وبالتدريج أخذ النظام يهلك نفسه .

الفصل الثالث

أرستقراطية القلاع

كانت النبالة (nobiles) في الامبراطورية الرومانية المتأخرة تأتي بالوراثة . وقد عرف الجرمان هـذه الطبقة (edelinge) التي كان لأفرادها امتيازات خاصة ، أبرزها الحق في تعويض مالي أكبر عن غيرهم في حالة وقوع ضرر بهم (wergild) . وتشير الوثائق الانجلوسكونية إلى أبناء هذه الطبقة على أنهم « ولدوا أعزاء » عن سائر الناس ، فهم ابناء زعماء القبائل ، ونجد هذا واضحاً في كتاب « جرمانيا » للمؤرخ الروماني تاكيتوس . ولما أن خضعت القبائل الجرمانية للملوك ، قلت امتيازات أبناء الطبقة العليا ، وإن كانوا قد احتفظوا ببعض المزايا . غير أن هذه الاستقراطية القبلية قد اندثرت بعد الغزوات الجرمانية ، ولم يبق منها شيء يذكر وقت تأسيس الممالك الجرمانية في الولايات الرومانية بعد سقوط روما سنة ٤٧٦ .

اما عن الارستقراطية الرومانية بين البيوتات السيناتورية ، فهذه أيضاً قد انتهت عند تأسيس الممالك الجرمانية على الحطام الروماني .

أصبحت علامات العلو والسيادة في المجتمع الجديد لا تقوم على أساس الوراثة ، وإنما تقوم على قدر ما يملكه الفرد من الثروة والنفوذ على الآخرين، إلى جانب الحظوة من جانب الجالس على العرش. وفي انجلترا الانجلوسكسونية

مثلاً لم يكن يتمتع بصفة الارستقراطية إلا ذلك النفر من أقارب الملك ، الذين عرفوا بلقب (aetheling) .

وليس أدل على سقوط عامل الوراثة في ارتباطها بالنبالة من أنه لا يمكن أن نتتبع شجرة عائلات اهم الاسر الحاكمة في أوروبا إلى عهود بعيدة في الماضي : إن الجد الأول لعائلة ولف (Welfs) ، التي لعبت دوراً كبيراً في تاريخ الفرنجة الغربيين ثم حملت تاج برغنديا من سنة ٨٨٨ إلى ١٠٣٢ ، هو كونت من بافاريا ، تزوجت ابنته من الملك لويس التقي . كما أن نسب كونتات تولوز لم يتضح إلا في عهد لويس التقي أيضاً . أما ماركيزات إفْريا (Ivrea) الذين صاروا فيما بعد ملوكاً على إيطاليا ، فقد ظهروا على مسرح الأحداث في عهد الملك شارلس « الأصلع » . وأما فرع لود لفنج (Ludolfings) أدواق سكسونيا ثم ملوك ألمانيا فيما بعد ، فقد ظهروا في عهد الملك لويس الألماني . أما أسرة البوربون فقد انبثقت عن آل كابيه ، وهم أعرق الاسر في أوروبا . ولكننا لا نعرف شيئاً عن الجد الأكبر لآل كابيه سوى أنه يدعى روبرت « القوي » وأنه قتل سنة ٨٦٦ في غالة ، ويميل البعض إل الاعتقاد بأنه من أصل سكسوني . وفي ايطاليا ظهرت عائلة ألتوني (Altoni) وهم أبناء لزعيم يدعى سجفريد من لوكا (Lucca) الذي توفي سنة ٩٥٠ ، ولا يمكن تقفي أثرهم قبل هذا التاريخ . كما أن منتصف القرن العاشر قد شهد ظهور اسرة سوابية هي أسرة بانبرج ، التي أسست دولة النمسا .

هذا عن أعرق العائلات الحاكمة في أوروبا. أما إذا أردنا أن نتتبع أصول عائلات الطبقات الإقطاعية الأقل شأناً ، فإننا لن نعثر على شيء يفيد .

في بداية عصر الإقطاع اقتصرت كلمة « نبيل » على ذلك الفرد الذي لا يخضع لسيد آخر ، بمعنى أنه ليس في حاجة إلى أن يتلقى أرضاً من الآخرين . غير أنه في نهاية القرن الحادي عشر نادراً ما نجد في الوثائق ترديداً

لكلمة « نبيل » بهذا المعنى ، وأغلب الظن أن أفراد هذه الطبقة قد اندثروا تماماً .[٣٩] وتشير الوثائق إلى تعريف جديد للنبالة الإقطاعية ، فالنبيل هو « الشخص الذي لا يوجد بين أجداده من كان خاضعاً للعبودية ! »[٤٠] .

ولما كان من الصعب تتبع هذه الأصول البعيدة ، فإن صفة النبالة صارت لصيقة بالثروة والسطوة والحظوة من جانب حامل التاج ، وعليه فأنه من الصواب أن نتكلم عن مستوى معيشة من نموذج ارستقراطي أي مميز عن مستويات المعيشة عند سواد الشعب . أما النبالة بمعناها القديم ، سواء عند الرومان أو الجرمان ، فلم تكن واردة على الأقل في بداية عصر الإقطاع .

من هنا يمكن اعتبار أبناء الطبقة الموسرة في عهد الإقطاع « طبقة ارستقراطية الأرض » أوسادة القلاع ، الذين ترتكز سطوتهم على ما يملكونه من مساحات شاسعة من الأرض الزراعية . كذلك يتميز أبناء هذه الطبقة بأنهم القادرون وحدهم على حمل السلاح وعلى الحرب كفرسان ، فهي إذن ارستقراطية المحاربين من أرباب القلاع . لقد كانت ارستقراطية عصر الاقطاع ارستقراطية محاربة : كل فرد منها يجيد الحرب من على ظهر جواده ، وله سلاحه الخاص من السيف والحربة والخوذة والعباءة المصفحة والدرع الثلاثي أو المستدير .

ولكل فارس تابعه الخاص (Squire) ومهمة الأخير العناية بالخيل والسلاح وهو بدوره يمتطي جواداً . ويلاحظ أن معدات الفارس القتالية باهظة التكاليف ، فهو يحتاج إلى تابع متمرس ، وإلى خيول جيدة وإلى سروج ومهاميز وسيوف وحراب وإلى نظارة وعدة للأنف وخوذات إلى جانب قميص من الجلد المطرز بحلقات من الحديد أو بشرائح من الصلب . وكانت كلمة فارس (miles) مرادفة للفظة « فصل » أو « نبيل » في

(39) Bloch, M., Feudal Society (trans. from the French by L.A. Manyon), London, 1961, p. 286.
(40) M.G.H.L.L., vol. IV, p. 527.

آن واحد . ولقد قسم البعض طبقات المجتمع الإقطاعي إلى ثلاث : هؤلاء الذين كانت مهمتهم الصلاة ، وهؤلاء الذين يحاربون ، ثم هؤلاء الذين يعملون في الأرض . ولم يجد الفرسان غضاضة في أن يدعوا بأن مهمة القتال أهم بكثير لمجتمع الإقطاع من واجب الصلاة ، إذ أنهم رأوا في الحياة كلها سبيلاً واحداً هو الحرب من أجل البقاء . لقد عبر عن هذه الروح شاعر من شعراء الطروبادور ، هو برتراند دي بورن ، في الآتي :

« إني أحب الربيع الذي يكسو الاشجار بالأوراق والزهور
إني أحب تغريد الطيور والبلابل
ولكني أحب أيضاً أن أرى على تلك المراعي
خياماً ومعسكرات تموج
ويسر بصري عندما تمتلىء الأرض
بالخيل والفرسان وهم يتأهبون
وأبتهج عندما تنطلق الكشافة يستشعرون
ويتجهم المحاربون وهم بعد يركضون
ويمتلأ قلبي بالسرور عندما أرى حصار القلاع
والاسوار تدك ، وصليل السيوف يملأ البراري
والدروع تتمزق ، والأفصال يتمايلون
وخيول الجرحى والقتلى تهيم على وجهها دون هدف
ورؤوس المحاربين تتطاير فوق الغبار
إن الموت في ساحة الحرب شرف كبير
صدقني ، إني لا أجد مثل هذه المتعة
في طعام ولا نبيذ ولا نوم
إنما المتعة في صخب المعركة وأنين المقاتلين . »[41]

وكان الفارس يفخر كل الفخر بقوته الجسمية ، وهو يصر دواماً على

(41) Bertrand de Born (ed. Appel), no. 40.

استعراض عضلاته المفتولة ، ويشبه قوته بقوة الحيوان المعافى دون جرح .
وهو يكتسب تلك الليانة البدنية بالمران منذ نعومة الأظفار ، حتى لقد سار المثل في عهد الدولة الكارولنجية يقول : « إن من يبقى في المدرسة حتى سن الثانية عشرة دون أن يمتطي الجواد ، فإنه لا يصلح إلا لأن يرتدي مسوح الرهبان » . كما أن وثائق العصر تفيض بالثناء على القوة الجسمية والعضلية ، والصورة الواردة للفارس تصوره .. عريض المنكبين ، حديدي العظام منبسط الأطراف ، متناسق الأعضاء ، وتزين جسمه آثار ضربات السيوف .
والفارس الصحيح هو الذي يتمتع بشهية الخيل في طعامه :

« يا إلهي ، إنه لمن شاكلتك يا سيدي
إنه يبتلع فخذ الخنزير دفعة واحدة
ويعب من النبيذ دنا في رشفتين
يا لويل الرجل الذي يحل عليه غضبه في الحرب » ؟ (٤٢)

وإلى جانب القوة الجسمية كان لابد للفارس من التحلي بفضيلة الشجاعة ، شجاعة القلب ، واحتقار الموت ، والحرص على الشرف ، والحفاظ على مشاعر الولاء للسيد ، والمبادرة للتطوع في الحروب المقدسة ، والسعي إلى النصر لإعلاء شأن اسمه واسم سيده أو محبوبته . وقد أضافت المؤسسات الدينية مهمازاً جديداً هو الوعد بالفردوس لمن يموت في سبيل قضية دينية أو في خدمة سيده بإخلاص .

ولما كانت حياة الفارس عرضة للخطر الدائم ، فإن ميدان القتال كان يعفيه من آفة التوتر والقلق الدائم. ولم تكن المجتمعات الاقطاعية — مثل

---

(42) La Chanson de Guillaume (ed. D. McMillan), vs. **1054 seq.:**
«Par Deu, bel sire, cist est de votre lin,
Et si mangue un grant braun porcin,
Et a dous traitz beit un cester de vin.
Ben dure guere deit il rendre a sun veisin.»

فرنسا أونورماندیا – بقادرة على امتصاص هذه الطاقات القتالية الكامنة في أجسام أشبه ما تكون بأجساد حيوانات الغابة . ولذا فقد أطلق الفرسان على أراض السلاف والجنوب الإيطالي وصقلية واسبانيا وعلى الأراضي البيزنطية وفي آسيا الصغرى ثم في مغامرات الحروب الصليبية . وقد قيل عن نورماندیا على وجه الخصوص أنها كانت تحتوي أكبر عدد من الفرسان المحبين للمغامرة وقد أشار إلى هذه الحقيقة صراحة كل مؤرخي العصور الوسطى من المعاصرين فقد وصفهم أوتو بن فريزنج بأنهم « قوم لا يعرفون الاستقرار » ، ولعل هذه الصفة متوارثة عن شعوب الفايكنج من أهل الشمال . إن فكرة الحرب المقدسة التي اخترعتها الكنيسة البابوية كانت بمثابة التنفس الأمثل للفرسان ليفرغوا فيها طاقات مكبوتة ، وليحققوا عن طريقها الغنم كله الى جانب الأمل في الجنة عند الموت .

وإذا كانت الحرب شرفاً عظيماً للفارس، فهي في نفس الوقت سبيل إلى الثراء وجمع الغنائم ، كما أنها تضمن للفارس الشجاع سمعة عالية وعطايا من السيد . كما أن الفارس سعيد الحظ هو الذي يوقع في الأسر بشخص مرموق ، فيضمن بذلك فدية دسمة ، ونحن نعلم أن الأسرى من الفقراء كان نصيبهم الموت ، ولا يبقى على قيد الحياة سوى الأسرى الموسرين القادرين على دفع الفدية الكبرى [٤٣] .

وفي أوقات السلم كان الفرسان يجدون لذة خاصة في قطع الطريق والاستيلاء على متاع وأموال التجار والقوافل من المسافرين . ويحدثنا المعاصرون عن فارس مغامر إسمه وليم مارشال الذي بدأ حياته مفلساً تماماً ، وكان يجوب أراضي فرنسا بحثاً عن صيد على قارعة الطريق ، وقد جمع من قطع الطريق ثروات فاحشة . ويروي عنه انه لقي ذات مرة راهباً خبيثاً قد هرب ومعه فتاة من اسرة نبيلة ، وكان الراهب يحمل معه بعض الحلى ، ولم يتردد وليم

(43) Guibert de nogent, De vita, (ed. Bourgin), 1, c. 13, p. 43.

مارشال في أن يسلب الراهب من ماله . معللاً نفسه بأنه بهذا العمل تحقيق عدالة السماء ، في عقاب راهب فاسق .

وقد بلغ عنف مغامرات حروب الفرسان إلى حد جعل المؤسسات الدينية تفرض أياماً محددة تحرم فيها القتال ، وعرفت هذه أحياناً بأسم ، هدنة الله » (Turga Dei) وأخرى باسم « سلام الله » (Pax Dei) . وكان فرسان القرن الحادي عشر على درجة بالغة من خشونة الطبع : فهم يشربون حتى الثمالة ، وكانت قلاعهم تحوي النساء الفاسدات . وإذا خسر أحدهم جولة في إحدى مباريات الشطرنج مثلاً فقد يبارز خصمه حتى يجرحه . وإذا تباطيء خادمه في إحضار كأس من الشراب فقد يرشقه برمح ، وإذا ضايقته زوجه بثرثرتها فهو يضربها في قسوة بالغة . وكان الفارس يحتقر ابناء طبقة الفلاحين أو الأقنان احتقاراً شديداً ، ولا ينظر إليهم كآدميين ؛ لأنهم « لا يجيدون فن الحرب » (imbellis) ، وهم يفرون من وجه الغزاة مثلماً تنفر النعام الفتخاء من صفير الصافر . وهو يحتقر بنفس القدر طبقة التجار الذين يجمعون ثرواتهم بالغش أو التطفيف ، وهي ثروات لا تقارن بمكاسب الفرسان التي تتأتى بالعرق والدم وبحد السيف .

والفارس يضيق بحياة السلام ، لأنها ترادف عنده حياة الكسل والسأم والرتابة . ونطالع في أحد النصوص أن السلام كان يعني بالنسبة للفرسان « انصراف الأغنياء عنهم ، وازدياد جشع المرابين ، وسوء حالة الخيل ، ثم استخدام مهاميز الحديد بدلاً من مهاميز الذهب » (٤٤) .

وفي أوقات السلام كان الفرسان يمضون حياتهم بطريقة مختلفة عن اسلوب حياة بقيـــة طبقات المجتمع . ففي المناطق الجنوبية من أوروبا مثل ايطاليا وبروفانس وأرض لانج دوك (Languedoc) ، كانت كل جماعة

(44) Girart de Ronsillon, (trans. by Pè Meyer), 633-37; Vita Heinrici, (ed. W. Eberhard), c. 8.

صغيرة من الأهالي تستقر على مقربة من احدى المدن التي تتركز فيها شئون الإدارة الحكومية وحيث يوجد السوق والمتاجر . وكانت هذه المدن هي مقر الأقوياء من الأفراد وأصحاب النفوذ والسلطة . واستمر أهل تلك المناطق ، كما كانت الحال في العهد الروماني ، وهم يمثلون بذور الطبقة البورجوازية ، وقد شاركوا في الثورات التي قامت ضد حكم الإقطاع في القرن الثالث عشر . وفي فرنسا استقر أبناء تلك الطبقات البورجوازية في المدن التي نشأت منذ القرن العاشر : في غنت **(Ghent)** ، وبروجز **(Bruges)** وسويست **(Soest)** ، ولوبك **(Lubeck)** . وفي بعض المدن الأخرى التي بقيت من عهد الرومان — مثل ريمز وتورناي — استقر الاساقفة ورؤساء الأديرة ومن حولهم بعض الفرسان التابعين لهم .

ولكن طبقة الفرسان كانت تستقر على إقطاعاتها ، ولم تعرف حياة المدن اللهم إلا في زيارات قصيرة لتصريف بعض الأمور أو للبحث عن متعة عارضة . ذلك أن الفارس يعشق الريف والتلال والغابات ، وهـــو يحس بالاختناق داخل المدينة . وهنالك تلك الرواية عن ابن لأحد الفرسان ، أرسلته عائلته للانخراط في سلك الرهبانية ، وفي اليوم الأول الذي فرض عليه الصيام والعزلة للتعبد ، تسلق إلى أعلى أبراج الدير لعله بهذا « يؤدي التزام النساك من صوم واعتزال وروحه تتطلع إلى التلال والمروج التي لن يسمح له بارتيادها بعد اليوم » .

كان الفارس يقطن في قلعته تحيط به على مقربة أكواخ الفلاحين العاملين على أرض الإقطاع . وقد أقيمت قلعة الفارس على أساس دفاعي ، وهي لم تقم بتفويض من السلطات الحاكمة ، بقدر ما قامت تلبية لظروف قاسية بقصد الحماية من الإغارات الخارجية المفاجئة. وقد عبر عن هذه الحال كاتب مبكر في قوله بأن بنايات الفرسان أقيمت « بغرض الدفاع عن النفس ، وللتفوق على الأقران ، ولتأكيد السيطرة على من هم دونهـــم » في السلم

الأقطاعي [٤٥] .

وفي بداية الأمر كانت تلك البنايات على شكل أبراج من الخشب ، في طابقها الأول حجرة كبيرة لنوم الاسرة وللجلوس أيضاً . أما الطابق الأرضي فكان يستخدم كمخزن للمؤن . وحول هذه الأبراج الخشبية كانت تحفر الخنادق ، ويحيط بها جميعاً سور من التراب ، ثم يليها خندق آخر . أما المطبخ فكان يقع خارج البرج خوفاً من اندلاع الحرائق . وبمرور الوقت لجأ الفرسان إلى استخدام الحجارة كمادة بناء بدلاً من الأخشاب .

وعلى قدر ما كان الأقنان ينظرون إلى هذه القلاع على أنها الضمان لحماية القرى ضد غائلة المتبربرين ، على قدر ما كانوا يتوجسون من سادتها خيفة عند نوبة غضب ، أو عندما تتعرض تلك القلاع لأعمال أنتقامية من جانب السادة الكبار أو الأمراء والملوك ، إذ كانت تسوي تلك القلاع بالأرض ، فيعم الخراب والذعر على أهل القرية أيضاً . وتبالغ روايات العصور اللاحقة في تصوير السراديب السرية التي كانت بداخل تلك القلاع ، والتي كان يزج فيها بأعداء سيد القلعة إلى متاهات الظلام والموت .

كان على سيد القلعة أن يتخذ الحذر طيلة الوقت ، ولذا فقد كان هنالك حارس يسهر على المراقبة طيلة الليل من أعلى أبراج القلعة . ولما أن ازدادت طوابق القلاع صار يعيش فيها خليط من الأفصال والأتباع والخدم . ومن هنا فإن حياة القلعة لم تتسم بالخصوصية أبداً ، فقد كان الأتباع والخدم يتبعون سيدهم كالظل في داخل القلعة . هذا إلى جانب أن القلعة تستقبل أبناء الأفصال ليتلقوا آداب المعاملة وسلوك وأفانين الفروسية على يد السيد . وكان هؤلاء الأبناء يسهرون على سلامة السيد حتى وهو في مخدع الزوجية . ولم يكن من اللائق أن يتناول السيد طعامه بمفرده ، ولذ فقد كانت حجرات الطعام بالقلعة

(45) **Vita Johannis epislopi Tetruanensis, c. 12, in M.G.H.SS., vol, XIV, 2, p. 1146.**

مليئة بالموائد الطويلة والأرائك المنبسطة ليجلس إليها نفر كبير من أهل القلعة في أوقات الطعام . ولم يكن سادة هذه القلاع يقرؤون كثيراً ، وإنما كانت ثقافتهم مستمدة ممايسمعونه من الرواة والشعراء المقيمين معهم في القلاع ، أو من الوافدين أضيافاً على القلعة . ولا تعني إقامة السيد في الضياع وسط الريف أنه يعمل في الزراعة ، ولكنه يهيمن على المزارعين عن طريق موظفيه . وكان السيد يهتم في المقام الأول بحقه في ممارسة القضاء على أتباعه الأفصال من خلال محكمة القلعة الإقطاعية . أما الشئون القضائية الخاصة بالأقنان ، فقد تركها لموظف خاص يتبع له ، وهو الشخصية الكريهة في تاريخ أوروبا الإقطاعية والمعروفة باسم « جابي الضرائب » **(Bailiff)** .

وكانت رياضة السادة في وقت السلم هي الصيد ، الذي يخدم غرضين : متابعة رياضة الحرب في تعقب الحيوانات المفترسة ، ثم ضمان الحصول على كمية طيبة من اللحوم لتفي باحتياجات القلعة من طعام . وقد احتكر معظم السادة رقعاً معينة من الغابات لمتابعة هواية الصيد فيها دون أن يقربها أحد سواهم . وأبرز مثال على هذا تلك القوانين الصارمة الخاصة بالغابات والتي أصدرها الملوك النورمان بعد غزوهم لانجلترا .

وإلى جانب رياضة الصيد كانت هنالك رياضة المبارزة **(Tournament)** ولقد حفظ لنا التاريخ اسم مخترع هذه الرياضة وهو جيوفري دي پروي **(Preuilly)** الذي توفي سنة ١٠٦٦ . وكانت هذه المباريات تقام في في أوقات الأعياد والمواسم ، وهي اشبه ما تكون بتمرين للشباب في أوقات الفراغ . وكثيراً ما كانت هذه المباريات تقترن بتقديم جوائز للفائزين . وقد ساعدت هذه المبارزات الرياضية على خلق طبقة من المبارزين الهواة الذين كانوا يتنقلون من مكان لآخر للمشاركة في المباريات ولإظهار براعتهم ثم لكسب الجوائز والشهرة أيضاً . ولم يقتصر أمر هؤلاء الهواة على فقراء الفرسان فكثيراً ما لمع من بين صفوفهم بعض أبناء البيوت العريقة أو المالكة ، من أمثال بلدوين الرابع كونت هينولت ، وهنري ولي العهد الانجليزي ، وكان الأخير

يتعمد اخفاء حقيقة هويته في تلك المباريات . على أن هذه المباريات كانت أحياناً تأخذ طابع العنف ، وينتج عن ذلك بعض الإصابات القاتلة . ولذا فإن كبار الملوك وكبار السادة كانوا لا يرحبون بإقامتها ، وقد حرمها الملك هنري الثاني في انجلترى بالقانون . كذلك حمل عليها رجال الدين ووصموهما « بالوثنية » ، وحرمت الكنيسة من يقتل فيها من الصلاة الجنائزية . وكان الفارس المنتصر في تلك المباريات يستولي على خيل وسلاح المغـلوب ، وأحياناً كان يحق له التصرف في خصمه المنهزم فلا يطلق سراحه إلا مقابل فدية مالية . وتطالعنا سجلات العصر عن أفراد كونوا ثروات طائلة من واقع مقدرتهم الفائقة في أفانين المبارزة .

كان طبيعياً من واقع اسلوب حياة تلك الطبقة من النبلاء والفرسان ، أن يتبلور لها على التدريج كادر سلوكي خاص بها . وأبرز الصفات التي وضحت في تلك الكوادر المكتوبة هي « أدب المعاملة » **(Courtoisie)** ، وهي كلمة مشتقة من لفظة « البلاط » **(Court)** الخاص بالسيد الإقطاعي ، والذي كان بمثابة المدرسة الأولى التي يتلقى فيها الشباب من ابناء تلك الطبقة أساليب الأدب وحسن المعاملة . وقد ولدت هذه الكلمة في بلاطات سادة جنوب فرنسا وفي منطقة نهر الميز ، وعلى هذا فهي كلمة فرنسية الأصل . وقد أخذ الإيطاليون هذه الصفة عن الفرنسيين في أوائل القرن الحادي عشر ثم انتقلت بعد ذلك إلى المانيا عن طريق اقليم هينولت وبلدان بربانت وفلاندرز ، وعرفت عند الألمان بلفظة **Hoflich** . هذا وقد وفد كثيرون من أبنـاء النبالة الألمانية على القلاع الفرنسية ليتعلموا تلكم الآداب السلوكية الفرنسية ، وليس غريباً أن الشاعر الألماني ولفرام ڤون اشنباخ **(Wolfram von Eschenbach)** قد وصف فرنسا على أنها « أرض الفروسية المهذبـة » . وقد لعبت مدارس شارترز وباريس إلى جانب اللغة الفرنسية ذاتها دوراً كبيراً في تجسيد معاني السلوك الفروسي المهذب لدى أبناء الطبقات العليا . ويرتبط ارتباطاً وثيقاً بذلكم السلوك الفروسي المهذب موقف هذه الطبقة تجاه المرأة

النبيلة . لقد قال كونت سواسون يوم واقعة المنصورة مع السلاطين المماليك عبارة حفظها لنا مؤرخ حملة لويس التاسع على مصر في الآتي : « إنه ليوم خطير ، ولسوف يحكي عنه الكثير في صالونات السيدات عندما نعود إلى فرنسا » [٤٦] . والواقع أن السيدة النبيلة في ذلك المجتمع الإقطاعي لم تكن حبيسة القلعة كما تصور الكثيرون : فقد كان يحيط بها خدمها وأفراد حاشيتها وكانت تشرف بنفسها على كل شيء في القلعة ، بل إنها أحياناً كانت تتولى تصريف أمور الإقطاع بقضيب من الحديد . وفي القرن الثالث عشر ظهرت في المجتمع الفرنسي طبقة من « سيدات الصالونات » ، اللائي عشقن الأدب والشعر والفن والفروسية . وأصبحت سمعة الفارس الحربية والسلوكية تحدد في هذه الصالونات . ولقد حرص الفرسان المرموقون على إثبات جدارتهم في أن تذكر اسماؤهم على ألسنة رواد تلك الصالونات مقرونة بالاحترام والإعجاب . وقد نتج عن هذا أن اهتم الفرسان بالأدب والشعر ، وخاصة الغزلي منه . ورائد تلك الحركة هو الأمير وليم التاسع دوق اقطانياً الذي توفي سنة ١١٢٧ ، وكان يعشق الشعر والغناء . ثم جاءت ماري كونتيسة شامپاني (١١٤٥ — ١١٩٨) وهي ابنة لويس السابع ملك فرنسا من زوجته اليانور وريثة أقطانيا وصاحبة السجل الحافل ، ونقلت في شخصها ، وحاشيتها أفانين الشعر الطروبادوري والغرام من الجنوب الفرنسي إلى عاصمة زوجها في مدينة تروي (Troyes) . ومن تروي أشعت أفانين الغرام وملاحم الفرسان على سائر أرجاء المجتمع الأوروبي . وكان الشاعر المرموق كرستيان دي تروى يروي قصائده الممتلئة شجاعة وغراماً على مسامع الفرسان وسيدات قلوبهم دون وجل . وعرف بلاط ماري العشق الافلاطوني وغير الأفلاطوني ، حتى صار الفارس الذي ليست له علاقة غرام مشبوهة بإحدى سيدات الصالونات ، ليس أهلاً للقب الذي يحمل شرفه على حد سلاحه . وقد لعبت المرأة الفرنسية دوراً كبيراً في المبارزات ، وكان لها نصيب في إطلاق الصقور وقت الصيد ،

---

(46) **Joiville, c. XLIX.**

وهي ضيفة الشرف بين المشاهدين في حلبة المبارزة ، وبأسم هذه المحبوبة أو تلك كان الفرسان المرموقون يحطمون رماحهم وقسيهم ثم قلوبهم أيضاً .

لقد قلل الطروبادور من خشونة وضراوة فرسان فرنسا ، إلى حـــد أن فارساً جباراً مثل وليم مارشال قد طلب من بناته وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة أن يسمعنه للمرة الأخيرة شيئاً من عذب الألحان . وكثيراً ما هلك فرسان مكلفون بالحراسة على حين غفلة منهم ، وهم يستمعون بشغف إلى بعض الأغاني المحببة إلى قلوبهم .

ولقد عرف العصر الكثيرين من أبناء هذه الطبقة الذين انغمسوا في الملذات مع النساء ، وإن كانت الملاحم تضع المسئولية في ذلك على « ضعف النساء » لا على « شهوة الرجال » . كذلك كان سيد القلعة لا يجد حرجاً من أن يقدم لضيف مرموق فتاة جميلة لتدخل عليه السرور والبهجة .[٤٧] والواقـــع أن مجتمعاً مثل هذا المجتمع الذي كانت الزيجات تتم فيه وفق مصالح اقتصادية ، لم يكن يعرف كثيراً « الزواج الناجح » أو القائم على حب . ولذا فإن البديل لهذه العلاقة الزوجية « الكريهة » كان في اتخاذ المحظيات والخليلات . وكانت قلاع الإقطاع – بالضرورة – مليئة بالأبناء اللقطاء . وكانت بعض اغاني الطروبادور تغذي الحب الحسي الذي كان يتم حتى في حظائر السلاح والخيول .

إلى جانب الحب الحسي ظهرت أشعار كثيرة في الحب « الطاهر » ، وهو علاقة لا تمت بصلة إلى العلاقات الزوجية ؛ لأن المحبوبة دائماً هي سيدة متزوجة ، ولن يكون العاشق لها زوجاً . ذلكم الحب الطروبادوري ينصب دائماً على سيدة من الطبقات الأعلى ، ولذا فهو غرام مشبوب بالهيام المؤدب الذي يحاكي الطقوس الدينية . وهو حب يمكن أن يطلق عليه اسم « الحب

(47) See for example : Oliver's «Pelerinage de Charlemagne» ; Girart de Rousillon, op. cit.; La Mort de Garin (edè E. du Méril) ; Lancelot (ed. Sommer), the vulgate version of the Arthurian Romances, III, p. 383.

المحرم » ، ولا تستبعد فيه تماماً إمكانية العلاقة المحسوسة، ولكن هذا منال مستحيل . ولذا فإن العقبات التي تقف ضد تحقيقه في الواقع إن هي إلا مهاميز الوله والصبابة ونواقيس الأحزان عند شعراء الطروبادور . وعندما يغيب الأمل في الحصول على المنال ، يتولد بدلاً منه الإحساس بلذة هذا « الحب البعيد المنال » . وهنا أخذت تلك العلاقة بين العاشق والمحبوب البعيد المنال أبعاداً أشبه ما تكون بالعلاقة بين الفصل وسيده الإقطاعي . وفي مجموعه كان الحب الطروبادوري يحتقر العلاقة الحسية ولا يهتم بها كثيراً ، وفي حالة غلوائه فإنه أشبه ما يكون بما كتبه صاحب «Queste de Saint-Graal» من أن « آدم وحواء قبل أن يستلقيا جنباً إلى جنب تحت ظلال الشجرة المحرمة الثمرة لكي ينجبا هابيل العادل ، أخذا يتوسلان إلى السماء كي تسدل عليهما ظلاماً كثيفاً ليداري على العار » . وقد انتقل هذا الشعر « الرومانسي » من فرنسا إلى ألمانيا ، وعرف في الأخيرة باسم Minnesang .

هذا وقد اشتهر فرسان الجنوب الفرنسي بصفة أخرى وهي حب السطو لامن أجل التملك وإنما بقصد توزيع الأسلاب على الفقراء . وكانت الطبقات الدنيا تتوقع دواماً العطايا من الفرسان ولو على حساب أموال الآخرين . وهنالك روايات توضح الثراء الفاحش الذي كان يتمتع به بعض كبار الفرسان ، ففي بلاط أحد السادة في الليموزين صدر الأمر من السيد بأن تحرث أرضه وتبذر بقطع من العملة الفضية . كما أن سيداً آخر أمر بإعداد الطعام لأضيافه الكثيرين على نار الشموع ، وهنالك سيد ثالث أمر بإحراق ثلاثين من خيوله مرة واحدة (٤٨) .

كل هذا كان يتم تسابقاً من جانب أفراد هذه الطبقة في أثبات ثرائها الفاحش وتمايزها على بقية أفراد الطبقات الأخرى . وهو ثراء كان في حقيقة الأمر من نتاج عرق ودم رقيق الأرض من جماعة الأقنان ، الذين لم يكونوا

(48) Geoffroi de Vigeois, 1, 69, in Labbé, Bibliotheca, I, II, p. 322.

يجدون ما يسد الرمق . وفي منتصف القرن الثاني عشر ظهر الاتجاه نحو صبغ أفراد طبقة الارستقراطية المحاربة بصبغة قانونية ، بهدف تثبيت حـــق الوراثة في عرق النبالة ؛ ومنذ ذلك التاريخ بدأت تظهر كلمة « جنتلمان » (gentilehomme) أي شخص من « أصل » (gens) خاص ونبيل عن طريق الوراثة . وكان هذا الصلك بالنبالة يتم وفق مراسيم خاصة يتخرج فيها الشاب النبيل على درجة الفروسية .

ابتداء من منتصف القرن الحادي عشر تتردد في الوثائق أخبار عن تنصيب فرسان هنا وهناك . وكان هذا الحفل يتم وفق مراسيم وطقوس خاصة : يتقدم الصبي المرشح أمام سيده الذي علمه أفانين وآداب الفروسية ، ليتسلم منه الاسلحة التي ترمز إلى مستقبله كفارس ، وأهم تلك الاسلحة المنطقة والسيف . ثم يقوم السيد ، على مشهد من جمع وقور ، بتوجيه ضربة براحة يده على رقبة الشاب ، وأحياناً على وجنته ؛ وقد عرفت تلك « الضربة » في الوثائق بأسم Paumée . وهي بمثابة تذكرة للصبي بالوعد الذي أخذه على نفسه بالوفاء والطاعة لسيده . وتشير الحوليات إلى أن الصبي كان يعمل جاهداً على ألا ينهار من ثقل هـــذه الضربة ، وهي على أية حال الضربة الوحيدة في حياته التي لا يجوز له أن يرد عليها بضربة مماثلة(٤٩) . وهـــذا الطقس شبيه بتلكم « الضربة » التي كان الأساقفة ينعمون بها على الكاهن وقت سيامته في سلك الإكليروس . وبعد أن يتلقى الشاب تلك الضربة ينهض ليمتطي صهوة جواده ويعدو ليمزق بسيفه أو بحربته عدة حربية تثبت في هدف معين ، وقد عرف هذا الإجراء باسم Quintaine . وفي بعض الأحيان – مثلما كانت الحال في انجلترا – يقترن هذا الحفل بقص شعر الفارس الصغير .

---

(49) Raimon Lull, Libro de la orden de Caballeria, (ed. J. R. de Luanco, Barcelona, R. Academia de Buenos Letras, 1901, IV, 11. English trans.: The Book of the Order of Chivalry (trans. W. Caxton, ed. Byles, 1926).

إن هذا الحفل هو بمثابة موعد التخرج وإصدار الصك الرسمي من المجتمع الإقطاعي لفارس شاب ينضم به إلى طبقة الفرسان النبلاء . وهو بهذا النظام ينتمي إلى العصور الوسطى تماماً ، ولقد اخطأ الكثيرون عندما ردوه إلى منابع جرمانية . ذلك لأن كل جرماني ، من القديم ، كان رجلاً حراً وكان يحق له حمل للسلاح ، أما في العصور الوسطى فإن حمل السلاح كان شرفاً مقصوراً على أبناء طبقة معينة من نبلاء القوم. وبهذه المراسيم فقط كان يسمح لأبناء هذه الطبقة بالدخول في إطار طبقة الفرسان المحاربين ، وليس ادل على هذا من أنه في نورمانديا القرن الحادي عشر إن قيل عن ابن لأحد الأفصال بأنه «ليس بفارس» فإن هذا يعني أنه لازال طفلا صغير لم يتخرج بعد فيما ينبغي عليه أن يتمه[٥٠].

إن الإصرار على أن يقترن حفل تخريج فارس جديد بمراسيم دينيـــة يشير إلى أن الدخول في صفوف هذه الطبقة كان وقفاً على جماعة معينة لها نظام خاص (Ordo) . وهذه الكلمة الأخيرة مستعارة من النظم الدينية ، وراحت ألسنة ووثائق العلمانيين من رجال الإقطاع في استخدامها . وتتمثل تلك المراسيم الدينية في إقامة صلاة خاصة لمباركة سيف الفارس الصغير بغرض حماية السلاح وصاحبه من عين الشرير ومن مكائد إبليس . كذلك كان على الفارس الصغير أن يضع سيفه لمدة من الوقت على المذبح في قلب بيت العبادة . وكان يحق لكبار رجال الدين أن يقوموا بدورهم بتخريج الفرسان : ففي سنة ٨٤٦ قام البابا سيرجيوس بتقليد لويس الثاني فارساً ، كما عهد وليم الفاتح النورماندي إلى كبير أساقفة كنتربري في تخريج واحد من ابنائه على نظام الفروسية . وفي مناطق السين والميز الفرنسية كانت الصلاة تشمل أيضاً العدة الربية الكاملة للفارس الجديد ، وفي القرن الثالث عشر نقرأ عن هؤلاء الشباب يستحمون بماء مصلى عليه . وقبل أن يسترد الفارس الجديد سيفه من على المذبح عليه أن يؤدي اليمين التي تحدد سلوكه الأخلاقي . ويمكن العثور على عناصر تلك اليمين من ثنايا آداب العصر التي تطل علينا من خلال ملحمة

(50) Haskins, C.H., op. cit., p. 282, c. 5.

برسيفال للشاعر كرستيان دى تروى ، ومن ملحمة لانسلوت ، ومن قصيدة « نظام الفروسية » (L'ordene de Chevalerie) ومن أنشودة رولان وغيرها كثير . وأبرز الصفات التي يجب أن يتحلى بها الفارس الجديد هي الكرم والشجاعة ومراعاة قواعد الدين وخدمة أغراض الكنيسة ، وحماية الأرملة واليتيم ، ومطاردة الاشرار والمعتدين ، وعدم قتل خصم أعزل ، وألا يغرر بفتاة ، وأن يعين رفيقاً في حالة ضيق. وهنالك نقش في بلدة شارترز وعلى الحائط الداخلي في كاتدرائية ريمز يسجل القسم الذي كان الفارس الجديد يؤديه في هذا الخصوص ، وهو يجري كالآتي :

« أيها السيد الرب ، الأب القدير ... لقد سمحت حكمة السماء باستخدام السيف على وجه الأرض للقضاء على الشر وفعل الأشرار ، وللدفاع عن العدل والحق ، ومن أجل حماية الضعفاء من البشر ، لذا فقد سمحت السماء بمولد نظام الفروسية ... أيها الإله القدير ، عوناً لعبدك الماثل بين يديك حتى تجعل قلبه منعطفاً دواماً على فعل الخير وحبه ، ولا تسمح ، يا إلهي ، له بأن يستخدم سيفه في إلحاق ضرر بأحد دون وجه حق ، أرشدني يا إله السماء لكي استخدم سلاحي أبداً في نصرة قضايا العدل والحق . »

غير أن الواقع يبين أن تلك المراسيم والأيمان كانت في أغلب الأحيان مجرد حبر على ورق ، ولم يترجمها الفرسان إلى سلوك .

ولكن تتضح الصورة تماماً عن أسلوب حياة ومفاهيم أرستقراطية القلاع لابد لنا من أن تدرس ملاحم العصر وأناشيده التي تمجد في خلق الفروسية . وهذه الآداب هي التي عرفت في التاريخ الوسيط باسم « ملاحم البطولة » (Chansons des Gestes) ، وأشهرها جميعاً أنشودة رولاند (Chanson de Roland) ، التي ظهرت في بداية القرن الثاني عشر ، وتم نشرها سنة ١٨٣٧ ، عن « خطية أوكسفورد » التي كتبت أصلاً سنة ١١٧٠ بلهجة أنجلو نورماندية .

وأنشودة رولاند تحكي فتوحات شرلمان في أسبانيا سنة ٧٧٨ ، وحصاره لمدينة بامبلون (Pampelune) ، ثم تقهقره بعد وصول أنباء عن هجوم سكسوني على فرنسا . وفي ١٥ أغسطس سنة ٧٧٨ تعرضت مؤخرة جيش شرلمان ، وهو يعبر جبال البرانس إلى فرنسا ، لهجوم مفاجىء من قبائل الباسك المسيحية ، الذين قاموا بذبح بعض الجند ونهبوا متاعهم . وكان من بين الضحايا البطل رولاند « كونت لامارش » في ولاية بريتاني الفرنسية .

والجدير بالذكر أن هذه الأنشودة قد كتبت بعد ثلاثة قرون من تلك الحادثة التاريخية . ولكن وقائع الأنشودة أسطورية تماماً ، ففيها نجد رولاند ابناً لشقيقة شرلمان ، كما نقابل أيضاً بطلاً أسطورياً آخر اسمه أوليفييه . كذلك نطالع روايات خيالية عن هجوم مفاجىء قوامه ٤٠٠ ألف من الفرسان المسلمين . وتعزو الاسطورة الهزيمة التي لحقت بجيش شرلمان إلى خيانة قام بها واحد من صفوف شرلمان اسمه جانيلون ، نكايـــة في عدوه وابن زوجته في نفس الوقت ، ألا وهو رولاند ذاته . وهكذا فإن الأنشودة قد غيرت المعالم التاريخية الحقيقية وكستها أردية الملحمة الصليبية، بقصد تمجيد الحرب المقدسة وابراز عناصر حب المغامرة والشجاعة ، وتأكيد الخلق الفروسي الفرنسي ومشاعر الولاء من قبل الفصل نحو سيده الإقطاعي، ثم أخيراً نغمة « الولاء لفرنسا الحلوة » . ويرى كثيرون من الدارسين من أمثال جاستون بارس ، وولف أن هذه الأنشودة وغيرها من الملاحم التي سوف يأتي ذكرها إنما هي من اختراع الروح الشعبية ليتغنى بها العامة والخاصة وهم يعبرون عن عواطفهم الإقطاعية عند أنباء النصر أو الهزيمة على حد سواء ، لأنها تحمل العنصرين معاً وفي صعيد واحد . على أنه يجب التنبيه إلى أن الحقائق التاريخية تأتي في هذه الملاحم ممسوخة تماماً ، فنحن أمام شعر أقرب مـــا يكون إلى الأساطير . ولكن القيمة في دراسة هذه الأناشيد تكمن في مفهـــوم العصر للعلاقات بين السيد والفصل وأيضاً في إلقاء مزيد من الضوء على كوادر سلوك أبناء ارستقراطية القلاع . وغني عن القول أن الشاعر قد اخترع

فكرة الخيانة من جانب جانيلون لكي يبرر هزيمة شرلمان – التاريخية الأساس – وهو يعبر جبال البرانس :

عندما يعقد شرلمان مجلساً عسكرياً للتشاور في أمر حملته المزمعة على أسبانيا ، يقترح رولاند أن يبعث الامبراطور سفيراً إلى معسكر الخصم ، الملك مارزيل ، للتفاوض وعقد هدنة بين الطرفين . ولكن جانيلون « الرعديد » يتردد في قبول تلك المهمة الوعرة ، فيقفز رولاند ليعرض على شرلمان أن يذهب هو بدلاً من جانيلون « الخائف » في هذه المهمة . غير أن جانيلون ، وقد آلمته الإهانة ، يصيح غاضباً بأن رولاند ليس فصله ، وحيث أن السيد الأكبر قد طلب من جانيلون القيام بهذا الواجب فهو ملتزم بالطاعة ، وعليه فهو ماض إلى سرقوسطة لمقابلة الملك مارزيل [٥١] .

ويأخذ رولاند في الضحك سخرية « من جانيلون ، ويتوعده الأخير بالتهديد والوعيد صراحة ويعلن له الكراهية ، لأن رولاند هو الذي أوحى إلى شرلمان بإيفاد جانيلون في تلك المهمة الخطرة ، وهو يوقن أن من يذهب إلى سرقوسطة لن يعود منها أبداً . وقد وقف أوليفيه إلى جانب رولاند في تضييق الخناق على جانيلون أمام شرلمان لحمله على قبول السفارة المحفوفة بالخطر . ويصل جانيلون إلى معسكر مارزيل ، وقد عقد العزم على الخيانة انتقاماً من رولاند ورفيقه أوليفيه . ويدخل جانيلون في روح مارزيل « أن شرلمـــان يفضل الموت على التخلي عن باروناته في الحرب [٥٢] » ، ولكنه – أي شرلمان – سوف يظل يحارب حتى يتمكن خصم جبار من قتل أفضل

---

(51) **Lagarde, A, Michard, L., Moyen Age, pp. 8 seq. XXI : «Ganelon répond : «Tu n'iras pas à ma place ! Tu n'est pas mon vassal et je ne suis pas ton seigneur. Charles commande que je fasse son service : j'irai à Saragosse, vers Marsile...»**

(52) **Ibid., : «Dieu l'a illuminé de tant de noblesse qu'il aimerait mieux mourir que d'abandonner ses barons...».**

رجاله وهما رولاند ورفيقه أوليفييه (٥٣) . وتحاك المؤامرة بين جانيلون والملك مارزيل على أساس أن يقدم الأخير عشرين من الرهائن الى شرلمان لكي يقنعه بالانسحاب إلى فرنسا سلماً ، على أن يترك مؤخرة جيشه ، بطبيعة الحال تحت إمرة رولاند وأولفييه . وهنا ينقضّ جيش يعده مارزيل على المؤخرة ليبيدهـا تماماً ، وبعدهـا لن يجروء شرلمان على شن حرب أخـرى على أسبانيا (٥٤) .

وتمضي الأحداث في الأنشودة ، ويقرر شرلمان الانسحاب وفق شروط مارزيل عبر جبال البرانس . ويعمل جانيلون على أن يرد الصاع صاعين لخصمه رولاند، فيقترح أن يعهد شرلمان بقيادة مؤخرة الجيش عند الانسحاب إلى كل من رولاند وأولفييه . ويتردد شرلمان قليلاً في الأمر ، لأنه لا يطيق فراق رولاند عنه ، ولكنه يوافق في نهاية الأمر ، ويقلد رولاند نوط القيادة على مؤخرة الجيش ، والدموع تنهمر من عينيه على لحيته البيضاء لأن حزناً يشد عليه بين الضلوع : « أي إبن أختي الجميل ، أنت تعلم أني تارك بين يديك نصف رجالي ، فاحرسهم بسيفك، لأن بهم تكون سلامتك» . ويرد رولاند قائلاً : « سيدي ، أنا لن أفعل الكثير ، وإنما هي يد السماء التي ترشدني . ولسوف أرعى وأذود عن عشرين ألفاً من الفرنسيين الشجعان ، فهيا أعبر في سلام الله الممرات وأنت ناعم البال ، إلى فرنسا الحلوة ، ولن

---

(53) **Ibid., : «Quand sera-t-il lassé de guerroyer?« — «Pas aussi longtemps, répond Ganelon, que vivra Roland : il n'y a tel vassal d'ici en Orient. Très preux aussi est Olivier, son compagnon...».**

(54) **Ibid., : «Pour vingt otages que vous lui enverrez, en douce France. s'en retournera le roi ; il laissera son arrière-garde derrière lui. Il y aura son neveu, le Comte Roland, je crois, et Olivier, le preux et le courtois. Ils sont morts, les deux comtes, si l'on m'en croit. Charles verra son grand orgueil tomber ; il n'aura plus jamais le désir de guerroyer contre vous.»**

تخشى أحداً ، طالما أنني حي أتنفس (٥٥) » .

وينسحب شرلمان على رأس نصف جيشه الآخر . ويصل الركب إلى مشارف غسقونية طليعة الديار الكارولنجية . ويتذكر الفرسان إقطاعاتهم وقلاعهم وبناتهم وزوجاتهم النبيلات ، وتنهمر الدموع شوقاً وحنيناً إلى سيدات القلاع ، بعد فراق طويل . أما أحزان شرلمان ، وهو يعبر بوابات اسبانيا إلى فرنسا ، فهي ثقيلة لا يعلمها إلا الله . وبعد رحيل شرلمان يبقى رولاند وأولفييه على رأس بقية الرجال داخل أراضي اسبانيا . وفجأة يأتي الهجوم الغادر من جانب جحافل مارزيل ، ونرى إبن أخ للملك يقسم بأن يكون عنق رولاند من نصيب يديه . ويذهل رولاند من هول الغدر المفاجيء ، ويتنبه أولفييه للخطر الواقع ويفكر في العدو بجواده لاستدعاء شرلمان للنجدة قبل فوات الأوان ، ولكن رولاند يرفض ذلك ، بل إنه عندما ينصحه أولفييه بأن ينفخ في « بوق » الخطر من علٍ لتصل أناته إلى مسامع شرلمان مع صفير الريح ، يرفض رولاند لأنه « لن يزعج سيده وهو يعبر البرانس إلى فرنسا » ، ويقسم بأنه سوف يدق أعناق العدو بسيفه . وهو على كل الحالات لن ينفخ في البوق ولن يكرر على السيد صفوه ، ولن يجلب العار على فرنسا ، وليكن ما قد يكون (٥٦) .

(55) Ibid., : «L'empereur tient la tête baissée, il tire sa barbe et tard sa moustache; il ne peut s'empêcher de pleurer»... «Je n'en ferai rien. Dieu me confonde, si je démens ma race ! Je garderai vingt mille Français bien vaillants. Pressez les ports en toute sûreté: vous ne craindrez nul homme, moi vivant...».

(56) Ibid., : «Olivier: Compagnon Roland, sonnez votre cor (olifant) : Charles l'étendera et fera retourner l'armée ; il nous recouvre, avec son baronnage». Roland répond : «Au Seigneur Dieu ne plaise que pour moi mes parents soient blâmés, ni que France la douce tombe en déshonneur ! Mais je frapperai de Durendal, ma bonne épée que j'ai ceinte au coté: vous en verrez la lame ensanglantée. Pour leur malheur les félons se sont ici rassemblés: Je vous le jure, ils sont tous livrés à la mort.»

ولما أن اشتدت وطأة القتال على رجال رولاند ، ولاحت في الأفق الهزيمة . جزع رولاند وفكر في أن ينفخ في « البوق » . ولكن أولفييه يذكره بأن الأوان قد فات بسبب عناده ، ويلاحظ أولفييـــه أن ذراعي رولاند ملطختان بالدماء ، وأن خيرة شباب فرنسا قد سقطوا صرعي في الميدان . ويدب الخلاف بين رولاند وصاحبه لأن الأول قد عرض بعناده مؤخرة الجيش للهلاك ، ويتدخل كبير الاساقفة المرافق للفرقة ويوضح لرولاند أن نفخ البوق لن يجدي شيئاً بعد ضياع الفرصة ، فقد بعدت المسافة بينه وبين مسيرة شرلمان، ومع هذا فلا بأس من نفخ البوق وإن كان لن يجدي فتيلاً ! وينفخ رولاند في البوق بزفرات الضيق والاستغاثة ، والدم يسيل من فمه . وتصل أنات البوق مع الريح البعيد إلى آذان شرلمان وهو على أبواب البرانس ومنعطفات فرنسا ، ويتعرف السيد على بوق فصله وابن أخته رولاند . ولكن جانيلون الخائن يوهم شرلمان أن ما يسمعه إن هو إلا وهم وأضغاث أحـــلام بسبب كبر السن ووهن حاسة السمع واختلاط أصوات الطبيعة على أحبالها . ولكن أنين البوق يطن في وجدان شرلمان ، ويؤكد له صدق سمعه نفر من قواد جيشه ، ويفطن شرلمان إلى خداع وغدر جانيلون، فيأمر الجميع بحمل السلاح والارتداد لنجدة الملهوف في محنته . ولكن العودة من نفس الدروب والصخور شاقة ومريرة ، والمسافة التي تفصل بين المنقذ والهالك جد شاسعة.

وبينما يلهث ركب شرلمان قبالة مسرح المأساة، نلحظ على الجبهة الأخرى جيشاً جديداً يقذف بـــه ما رزيل للإجهاز عـــلى بقية رجال رولاند ، وهذا الجيش الجديد قوامه مقاتلون من الأحباش وعلى رأسهم عم مارزيل واسمه مرغنيش . ومرغنيش هذا يملك يداً من الحديد، يرمي بها أولفييه بضربة قاتلة . ويسقط أولفييه مضرجاً في بحر من الدماء وتدنو روحه من الموت ، فيدرك أنه قد حرم من فرصة الانتقام لشرفه ودمه المهراق . ووقت احتضاره تدور بخيال الفتى لحظات خاطفـــة من سجله في المجد والفخار وهو يمزق خصومه واحداً بعد الآخر ، تلبية لصيحات شرلمان في معارك قديم الأوقات .

وقبل أن يلفظ أولفييه أنفاسه الأخيرة يطلب إلى رولاند رفيقه وصديق عمره أن يقترب منه تماماً بكليته حتى يتلامسا لينفصل واحدهما عن الآخر وهما على هذا التماس القريب . ويحملق رولاند في وجه صاحبه، فيجده في صفرة الموت ، والدم ينسكب من جسده ، ويصرخ رولاند : « سيدي ورفيقي وحبيبي إن شجاعتك قد غلبتك ، وها أنت تموت نبيلاً . لن تشهد الأرض فارساً بعد اليوم مثلك » . (٥٧)

ويحزن رولاند على موت أولفييه الحزن كله ، ويصيح مولولاً : « بعد هذا الفراق كيف تحلو الحياة » (٥٨) . ويمتطي رولاند صهــوة جواده ، ويقاتل كالمجنون بسيفه المرموق « درندال » المطعم بقطع أثرية دينية . غير أن طعنة نجلاء تصيب رولاند على حين فجأة ، فتخترق قلبه ، ويسقط على العشب الأخضر ووجهه ممدود على جبين الأرض . ويدنو الموت ممن قــد اشتهاه بعد فراق الرفيق ، وتكون آخر كلماته . « يا إلهي ، ذلكم هــو خطأي » (٥٩) .

ثم يصل ركب شرلمان إلى مسرح المعركة ليجد فصليه المرموقين أولفييه ورولاند قد قتلا ، فيبكي شرلمان عليهما بكاء الأطفال اليتامى . وينهض وقد

---

(57) Ibid., : «Rolland apelet, sun ami e sun per:
«Sire cumpaign, a mei car vus juntez
A grant dulor ermes hoi desevrez.»
Rollant regardet Olivier al visage:
Teint fut e pers, desculurent e pale.
Li sancs tuz clers par mi le cors li raiet:
Encuntre tere en cheent les esclaces.
«Deus!» dist li quens, «or ne sai jo que face.
Sire cumpainz, mor fut vostre barnage !
Jamais n'iert hume ki tun cors cuntrevaillet».

(58) Ibid., : «Quand tu es mort, c'est
douleur que je vive».

(59) Ibid., : «Deus, mea culpa».

تملكته حمية الثأر ، وتدور معركة طاحنة ، يكون النصر فيها لشرلمان ، ويفر الخصم إلى ضفاف نهر إبرو. ويتعقب نفر من الرجال موكب مارزيل ، ويلتحمون به ويصاب فتنقطع إحدى يديه. ويعود شرلمان إلى ساحة الأحزان في رونسفوه (Roncevaux) ليواصل البكاء على جثمان البطلين وبقية القتلى من رجاله. ويصل حيث يرقد رولاند جامداً على الربوة الخضراء ، فيترجل شرلمان ويمسك بالجسد الهامد ويحتضنه. غير أن البارونات والأدواق يتوافدون لإبعاد الامبراطور عن هذا الموقف الأليم. وقبل أن يبرح شرلمان المكان يبكي فيقول : « صديقي رولاند ، لعل السماء تنزل روحك الطاهرة في منازل الزهور في الفردوس بين الخالدين. لقد أتيت إلى أسبانيا تحت إمرة سيد سيىء ... ولكن لن تفارقني ذكراك طالما أني أعيش ، ولسوف تبقى عندي أغلى من الأهل والأحباب جميعاً. قل لي رولاند ، لسوف تشن شعوب الأرض من سكسون وهنغار وبلغار ورومان وأفارقة علي الحرب ، فمن ذا الذي يقود الرجال ، أنت كنت تقودنا جميعاً إلى ساحة الشرف. تباً لك يا فرنسا ، لقد بت ثكلى ، وكيف لا تبكين ». ويأخذ شرلمان بعد هذا البكاء الحزين في تمزيق شعر رأسه وشعيرات لحيته البيضاء ، وينحني أمام هذا المشهد الدامي مائة ألف من الفرنسيين على وجه الأرض !!

ثم نعود إلى القتال مرة أخرى ، وينتصر شرلمان على أعدائه ويستولي على بلدة سرقوسطة ، وينتقم بهذا لدم رولاند. وبعدها يعود شرلمان إلى فرنسا يحمل في موكبة جثمان رولاند ورفيقه أولفييه وثالثهما تورپن (Turpin) ليدفنوا في مهابة لائقة في رحاب بلدة بلاى (Blâye) في فرنسا.

ولما وصل شرلمان إلى عاصمته آخن (Aachen = Aix la Chapelle) ودخل قصره ، قصدت إليه الفتاة أود (Aude) ، شقيقة أولفييه وخطيبة رولاند ، وهي آية في الجمال ولكأنها صيغت من الشمع. وتصرخ أود في في وجه شرلمان : « رد لي رولاند الذي أقسم بأنه يأخذني له زوجة ». وتنهمر الدموع مدرارة من عيني شرلمان ، ويعاود في تمزيق شعيرات لحيته البيضاء ،

ويواسي الفتاة بقوله : « أيا أختاه ، إنك تطلبين من الموتى ، وكيف لي أن أجد لك مثل رولاند . ليتك تقبلين ولدي وحبيبي ووريثي لويس، وهو من خيرة الفرسان ، زوجاً لك » . ولكن أود ترد بأن هذا العزاء لن يشفي لها أحزانها ، وبأنها لن تحسن الحياة بعد فراق رولاند . ويأخذ لون الفتاة في الشحوب وتسقط على الأرض عند قدمي شرلمان ، وتفارق الحياة في التو . ويمتلأ البلاط في المدينة آخن بالبكاء والعويل على أود النقية ، ويحمل جثمانها المسجى على قلوب سيدات القصر لتدفن في خشوع مع رفات القديسات (٦٠) .

ثم يأمر شرلمان بإلقاء القبض على الخائن جانيلون ، فيؤتى به موثوقاً بالأغلال ، ويضرب ضرباً مبرحاً ، ويقدم للمحاكمة وتثبت إدانته . وينبري فارس يدعى ثيري (Thierry) ليبارز جانيلون ، وتدور الدائرة على أهل الخيانة ، وتتحقق عدالة السماء . ويصيح المشاهدون للمبارزة مع الشاعر في نهاية الملحمة : « من خان هلك ، ومعه كل الخونة هالكون » (٦١) .

إذا كان شرلمان هو الملك الذي دارت حوله أساطير وملاحم الفروسية في بلدان القارة في القرن الثاني عشر ، فإن الأنجليز قد وجدوا أيضاً في سيرة الملك آرثر مجالاً خصباً لرسم الصورة المثالية لفارس القرن الثاني عشر ، في

---

(60) Ibid., : «Li empereres est repairet d'Espaigne, E. Vient a Ais, al meillor sied de France; Muntel el Palais, est venu en la sale. As li Alde venue, une belle damisele. Co dist al rei: «O est Rollant le Catanice Ki me jurat cume sa per a prendre?» Carles en ad e dulor e pesance. Pluret des oils, tiret sa barbe blance : «Soer, cher'amie, d'hume mort me demandés. Jo t'en durai mult esforet eschange: Co est Loewis, mielz ne sai a parler ; il est mes filz o si tendrat mes marches, Alde respunt : «C'est mot mei est estrange». Ne place Deu ne ses seinzs ne ses angles, Aprés Rollant que je vive remaigne !» Pert la culor, chet a piez Carlemagne, Sempres est morte.
Deus ait merci de l'anme !
France is barons en plurent e si la pleignent».

(61) :Ibid., : «Quiconque trahit se perd, et les autres avec lui.»

بعد جديـــد هو حب سيدة القلاع البعيدة المنال . والملك آرثر هو الزعيم المفضل لدى البريطانيين ضد غزوات الأنجلو ساكسون للجزيرة في القرن السادس . ولكنه في القرن الحادي عشر يصبح في خيال الشعراء صنواً لشرلمان ، فهو يحكم ملكاً شاسعاً ، ولكنه في في نهاية الأمر يغلب على أمره بفعل الخيانة من جانب ابن أخيه مودرد (Modred) مع فاتنة زمانها الملكة جونيفير (Gunivere) . وقد استقى الكاتب الفرنسي كريتيان دي تروي (Chrétien de Troyes) أخبار الملك آرثر عن الكاتب الانجليزي جيوفري من ماموث (Geoffrey of Mammouth) . وقد عاش كريستيان في بلاط الأميرة ماري من شامباني ابنة الملك لويس السابع من زوجته الخطيرة إليانور دوقة أقطانيا . وقد طلبت مـــاري – وهي من مريدي مدرسة الطروبادور – من الشاعر كريتيان أن يتولى صياغة الأساطير الإنجليزية شعراً لتتغنى به سيدات البلاط والصالونات في رسم صورة فارس الأحلام ، على أن تكون سيدة القلعة هي أيضاً سيدة القلوب ، البعيدة المنال . وقد كتب كريتيان هذه الأشعار المطلوبة ما بين عامي ١١٦٥ و ١١٩٠ .

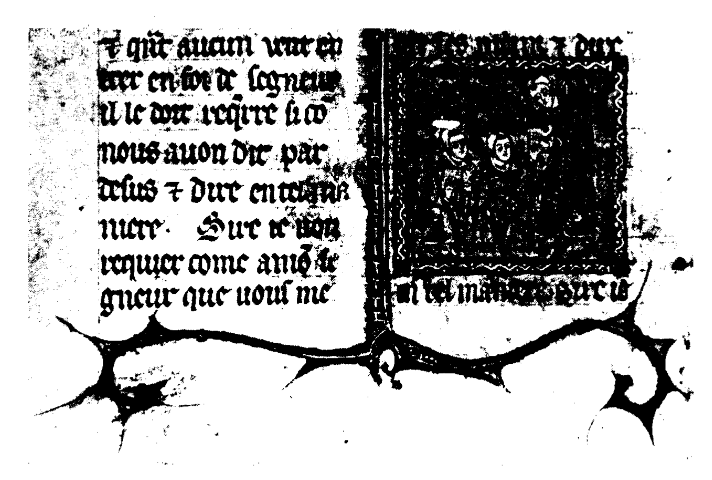
ومن بين تلك الملاحم الرائعة قصة الفارس لانسلوت (Lancelot) ، الذي يتفانى في خدمة سيدة القصر ، ولكأنه بهذا يؤدي إلتزاماً مقدساً نحو السيد الإقطاعي . وهذا الالتزام مغلف بوجدان القلب من جانب الفارس الشاب الذي يركب المستحيل من أجل سيدة بعيدة المنال ، هي الملكة ذاتها في حالة لانسلوت . وتبدأ القصة في قلعة للملك آرثر في بلدة كمالوت (Camaelot) ، حيث يعقد الملك مجلساً لفرسانه حول المائدة المستديرة . وفجأة يضطرب المجلس عندما تأتي الأنباء بأن فارساً معادياً قد نجح في أسر بعض الفرسان التابعين للملك ، وهو يعرض تسليم هؤلاء الأسرى إذا ما تمكن واحدٌ من فرسان المائدة المستديرة من منازلته في الغابة ، على أن تكون الملكة جونيفير هي الرهينة حتى انتهاء المبارزة . ويقبل السنكال كيو (Keu) التحدي ، ويقفز على ظهر جواده نحو الغابة ، وبعد قليل

يعود جواد كيو بدون سيده ، فقد قتل . فيهرع فارس مرموق آخر من أفصال الملك هو جوفان لتحرير الملكة الرهينة من أيدي الجبار . وهنا يطل علينا وجه جديد قطع المسافات واجتاز الجبال والغابات ليضع سيفه في خدمة الملك آرثر ، وذلكم هو البطل الذي لا يقهر لانسلوت . ويأخذ لانسلوت على عاتقه المهمة الوعرة فينطلق كالسهم يبحث عن ضالته المنشودة التي طبقت شهرتهـا وجمالهـا الآفاق . وفي الطريق يلمح جوفان ذلكم الفارس الجديد الغريب وقد تخلى عن جواده ، ثم راح يلهث وراء عربة عابرة من تلكم العربات القميئة التي كانت تخصص لربط المجرمين والمشبوهين في أوتاد على ظهرها . ويتقدم لانسلوت نحو القزم الذي يقود خيل العربة يسأله لعله رأى في طريقه سيدة فاتنة محمولة على جواد فارس . غير أن القزم لا يعطيه جواباً شافياً ، وإنما يجيبه في خبث زائد : « إن أنت ركبت على ظهر عربتي الحقيرة ، فلربما بعد سفر طويل تعرف ما قد ألم بالسيدة الفاتنة وإلى أين آل طريقها » . ولكن لانسلوت وهو من أنبل الفرسان يتردد قليلاً لخطوة أو خطوتين قبل أن يقرر قبول المهانة وركوب العربة الذليلة(٦٢) .

ويركب لانسلوت موكب المذلة بعد أن انتصر في نفسه نداء القلب على صوت العقل . ولا يصدق جوفان عينيه ، ويتابع ذلكم الموكب الغريب وهو في حيرة من الأمر ، ثم يتقدم من القزم ويسأله إن كان يعرف شيئاً عن الطريق الذي سلكته الملكة فيرد عليه القزم بقوله : « إن كنت تحتقر نفسك مثل هذا الفارس الذي يركب بجواري منذ قليل ، فهيا اصعد واجلس بجواره ، وسوف أهديكما إلى ما تبغيان ، فأنا أعرف الكثير مما رأتـه عينـاي » .

---

(62) **Lagarde, A., Michard, L., op. cit., Lancelot, 20-30 :**
«Aussitôt il reprend sa route, sans l'attendre d'un pas ni d'une heure. Deux pas seulement s'attarde le chevalier avant d'y monter.»



II. HOMAGE

From the *Établissements de Saint-Louis.* MS. of the late 13th century. Bibl. Nat., MS. Fr. 5899, f. 83v.

S: come teophilus fait ommaige au deable.



III. HOMAGE TO THE DEVIL

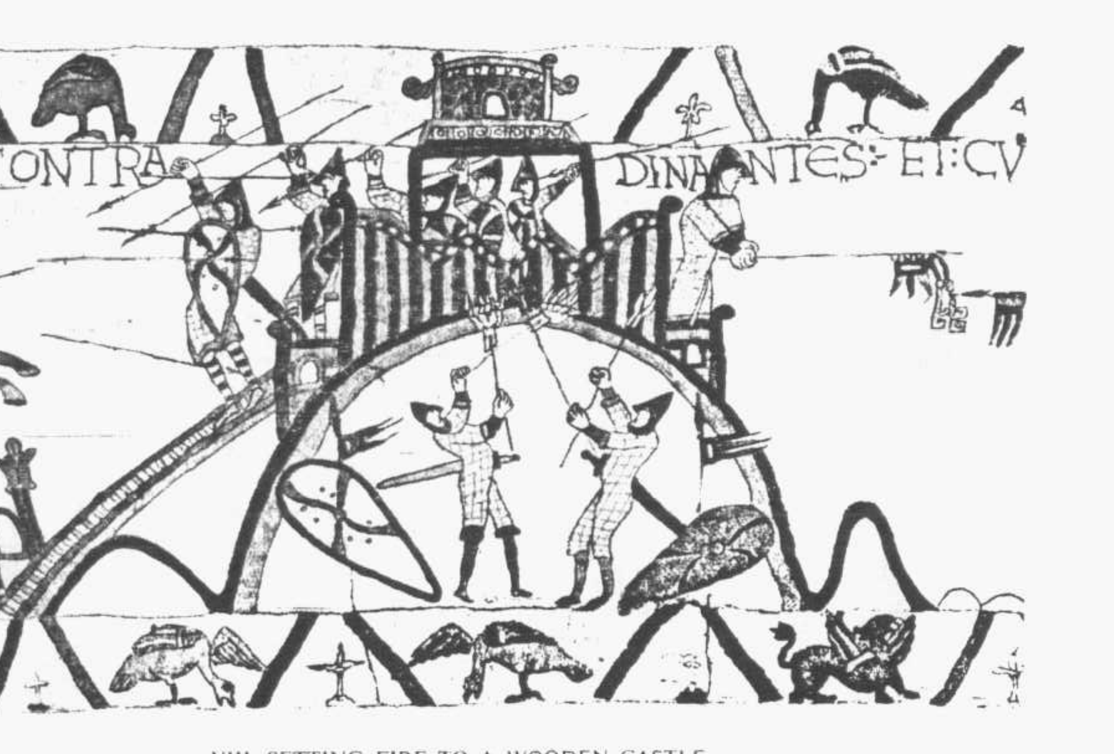
Theophilus does homage to the Devil. From the *Psautier de la Reine Ingeburge* (about 1200). Musée Condé, Chantilly, MS. 9, f. 35v.





VI. FIGHTING WITH THE LANCE: THE OLD STYLE AND THE NEW

le of Hastings: the Norman knights advance to the attack, some using the lance as a javelin, others handling it in the new manner. Bayeux Tapestry, end of the 11th century.



VIII. SETTING FIRE TO A WOODEN CASTLE

Capture of Dinan. Bayeux Tapestry, end of the 11th century.



X. ARMING A NEW KNIGHT

ng Offa receives his arms from King Wermund; a pen-and-ink sketch in Matthew Paris, *Historia de Offa Rege*, perhaps by the author himself (about 1250), British Museum, Cotton MS., Nero D1, f. 3.

ولكن جوفان يستاء من تلك اللغة الوضيعة ، ولا يقبل أن يلوث شرف الطبقة التي ينتمي إليها بالركوب على ظهر عربة المشبوهين بأوتادها التي يعرفها الجميع من دهماء القوم . ويرفض جوفان ركوب موكب العار ، ولكنه يظل من على صهوة جواده يتابع الموكب العجيب حتى يتبين الأمر .

وعندما يأتي المساء ، يصل الموكب الغريب إلى إحدى القلاع ، ويلج ثلاثتهم إلى صحن المكان من بواباته . جوفان على ظهر جواده ، والقزم ولانسلوت على ظهر العربة الذليلة . ويتساءل المشاهدون من السائق القزم عن صنف الجرم الذي ارتكبه الفارس الذي يجلس بجواره ، ويأخذون في الرجم بنوع العقاب الذي ينتظره بالشنق أو بالغرق في الماء . ولكن السائق لا يجيب ويواصل السير إلى داخل القلعة ، ولكأنه يخفي بين ضلوعه خطة ماكرة .

ثم يستتر لانسلوت داخل حظيرة مظلمة اناء الليل وهو يترقب شيئاً يحدثه به قلبه ، وفجأة يتنبه إلى حربة مشتعلة الرأس تسقط على فراشه ، فيهرع إلى النافذة ، ومنها يلمح الملكة جونيڤير في صحبة ملياجانت (Meleagant) الجبار ابن ملك بادماجو (Bademagu) ، وهو يقود الملكة الاسيرة إلى رحلة قبالة بلاد جور (Gorre) « تلكم البلاد التي إن دخلها غريب فإنه لن يعود » (٦٣) . ويفهم لانسلوت مضمون رسالة الحربة المشتعلة ، فهي نداء النجدة من الملكة الاسيرة للفارس الذي أقسم على سلامتها مهما كانت الصعاب .

ويقفز لانسلوت من حجرة الظلام ليتعقب مختطف الملكة إلى بلاد جور . والطريق إلى جور له مسلكان كلاهما أمر من الآخر ، فواحد هو الدرب المعروف باسم « قنطرة ما تحت الماء » (Le Pont sous l'eau) والثاني هو « قنطرة حد السيف » (Le Pont de l'Epée) . ولما

(63) Ibid., : «d'où nul étrange ne retourne».

كان لانسلوت فارساً ، فقد اختار بطبيعة الحال طريق السيف للكفاح من أجل الهدف الأسمى . وهنا نجد أنفسنا أمام فصل كامل من الإثارة والمفاجأة ، فهناك نهر فياض تعترضه مخاضة من مخاضات الأساطير ، ولانسلوت هو الحسام الذي يحطم العقبات في لذة ما بعدها لذة ، فهي مسار الحب . بل أن الأهوال التي تعترض لانسلوت في رحلته تجعل الواقع في ذهنه يختلط بالخيال ، فيتصور أشياء غير عادية ويحلم كأبهى ما يشتهي الحالمون . ومن خلال هذه الصفحة يقدم لنا الشاعر النموذج الأمثل للفارس الذي يلهث وراء هدف نبيل . فلم تكن الجروح ولا القروح ولا أشواك الطريق لتجعل لانسلوت يخفف من قبضته على « قنطرة العبور » إلى شاطىء المحبوبة . والذي يحرك فيه تحديات الموت طوال الطريق هي تلكم الابتسامة الملكية من شفتي جونيفير . ويعلمنا لانسلوت أن الشعور الذي يتولد من العذاب في سبيل المحبوب هو شعور حب عظيم لذلكم الألم اللذيذ[٦٤] .

ويصل لانسلوت إلى الشاطىء متهالكاً ، ويجد نفسه أمام قلعة الملك بادماجو والد ملياجانت مختطف الملكة . ويشرح لانسلوت للملك النبيل قضيته ، ويطلب استرداد مليكته جونيفير وفق شروط ملياجانت الأولى وهي المبارزة والتحدي ، ويتفق الاثنان على أن يفصل السيف بينهما على مشهد من الملكة ذاتها .

وتطل الملكة جونيفير من أعلى البرج ومعها وصيفتها لتشهد المبارزة ، ويلمحها لانسلوت فتلهمه بالشجاعة ويسترد قواه . ويتعمد صاحبنا أن يذل خصمه ملياجانت على مشهد من رهينته أكثر من مرة . غير أن لانسلوت ينسى نفسه لحظة عندما تقابل عيناه عيني جونيفير ، وينتهز الخصم الفرصة

---

(64) Ibid., : 40 ff. :
«A grande douleur — mais que lui importe ! — il passe outre en grande détresse, mains, genous et pieds se blesse; mais, ce qui l'encourage et le guérit, c'est Amour qui le mène et le conduit, et tout lui est doux à souffrir...».

ويضيق عليه الخناق ويملك عليه زمام الموقف . ولكن وصيفة الملكة تصيح من أعلى لتوقظ لانسلوت من أحلامه وليستدير بحيث يواجه الخصم وعيناه تشهدان البرج في آن واحد ، ويصبح الحب هنا مهمازاً للانتصار . وتشتد وطأة المعركة ، ويفيق لانسلوت لنفسه وينقض على غريمه كالأسد الضاري ويوقع به أرضاً ويصبح سيد الموقف . والأهم من كل هذا تصبح الملكة حرة بين يديه(٦٥).

(65) Lancelot, Le Chevalier : Lla Charrette, 3673-75 :
«Demoiselle, fait la reine... Lancelot du Lac est le nom du chevalier, je pense. — Dame, comme j'ai le cœur riant et gai ! fait la demoiselle.» Alors elle s'élance et l'appelle si haut, d'un voix si claire, que tout le peuple l'entend : «Lancelot ! retourne-toi ; regarde qui est là, et qui de toi prend garde!» Quand Lancelot s'entend nommer, il ne tarde guère à se retourner : il se retourne et voit, là-haut, la créature que, de tout au monde, il désirait le plus revoir, assise aux loges de la tour. Depuis l'instant qu'il l'aperçut, il ne détourne d'elle ni ses yeux ni son visage, mais se defendit par derrière. Et Meleagant le pressait le plus qu'il pouvait, tout joyeux de penser qu'il n'était plus homme à se défendre...
Alors derechef s'écria la demoiselle, de la fenêtre : « Ah ! Lancelot, comment se peut-il que si follement tu te conduises? Il y avait jadis en toi tout l'honneur et toute la prouesse, et je ne pense pas, je ne crois pas que jamais chevalier eût pu se mesurer à ta valeur et à ton prix. Maintenant, nous te voyons si entrepris que tu jettes en arrière tes coups et combats derrière ton dos. Tourne-toi; de manière à nous faire face et à regarder cette tour qu'il te fait si bon voir!»
Alors, Lancelot, pris de haute... bondit en arrière, tourne son adversaire, et, de vive force, place Meleagant entre lui et la tour. Meleagant s'efforce de retourner de l'autre côté; mais Lancelot court sur lui, le heurte avec tant de violence, de tout le corps sur tout le bouclier, quand il veut changer de côté, qu'il le fait virevolter deux fois ou plus à son vif dépit; et force et courage lui viennent, car Amour lui est de grand secours... Lancelot, à grands coups, le refoule vers le tour où la reine était accordée... Ainsi, Lancelot, à maintes reprises, le menait en arrière, en avant, partout où il lui convenait, et s'arrêtait toujours devant la reine, sa dame, qui lui a mis au corps la flamme, parce qu'il la contemple passionnèment; et cette flamme le rendait si ardent contre Meleagant que partout où il lui plaisait, il le menait et le chassait. Comme un aveugle et comme un estropié, il l'e mène bon gré mal gré.»

وبعد انتصار لانسلوت تسمح له الملكة جونيفير بالدخول إلى حجرتها ، ولكنها تعمد إلى استقباله في جفاء مفتعل ، فترفض أن تسمع منه كلاماً . ولا يعرف لانسلوت سبباً لهذا الجحود ، أهو سبب ركوبه تلك العربة القميئة الخاصة بالمتشردين والمجرمين ؟ كلا ثم كلا ، إن ذلك الفتور يرجع إلى أن لانسلوت قد تردد بعض الوقت -- خطوة أو خطوتين -- قبل أن يقرر ركوب تلك العربة بالذات . أليس حرياً بالفارس الوفي أن يتخذ كافة السبل ، طيبها وقبيحها ، لينقذ المحبوبة من مخالب الشرير ؟

وبعد قليل يصل جوفان لكي ينال شرف اصطحاب الملكة إلى قلعة زوجها آرثر . ويعقد الملك آرثر مبارزات بين فرسانه ، ويشارك لانسلوت فيها . ولكن الملكة تصر على أن يسمح لانسلوت لنفسه بأن ينهزم أمام خصومه ، تكفيراً عن ذنبه عندما تردد بعض الوقت في امتطاء العربة القميئة . ويقبل لانسلوت تلك المذلة ، كفارة عن الحب . ثم تحين فرصة الغفران ، وتسمح جونيڤير للانسلوت بأن يسترد مكانته في حلبة السيف ، ويهزم كل خصومه ليصبح سيد فرسان المائدة المستديرة ، والمتربع على قلب جونيڤير نفسها .

إن هذا الأدب الفروسي إن دلّ على شيء فإنما يدل على تمسك أبناء طبقة النبالة الإقطاعية بكادر سلوكي خاص يميزهم من غيرهم عن سائر طبقات المجتمع . وقد ولد هذا الشعور لديهم إحساساً بالاستعلاء ليس فقط على الأقنان وإنما أيضاً على طبقات الأثرياء من بورجوازية المدن . وقد ورد تصوير لهذه الأحاسيس في « سيرة القديس لويس » التي وضعها فارس من اتباع ذلك الملك هو جوانفيل . فلقد دارت مناقشة بين جوانفيل وروبرت دى سوربون كاهن البلاط ومؤسس الجامعة التي اشتهرت باسمه في باريس . وكان موضوع الجدل بين الرجلين تلك الملاحظة التي أبداها سوربون لجوانفيل بأن الأخير يرتدي ملابساً أفخم من الملابس التي كان يرتد يهاالملك نفسه . وقد رد عليه جوانفيل بلآتي :

« يا سيد روبرت، استمع إلي ، ليس هنالك ما يدعو إلى إيلامي على ما أرتدي من فاخر الثياب حتى ولو كانت من الفراء أو النسيج الأخضر ، لأن هذه الملابس هي التي اعتاد آبائي وأجدادي على ارتدائها ، وعنهم قد ورثت هذا التقليد . بل على العكس ، فإن التوبيخ يجب أن ينصب عليك أنت وليس على شخصي ، لأنك أنت ابن لأسرة من الفلاحين ، وها أنت بعد أن تقلدت المناصب العليا في بلاط الملك تتنكر لزي آبائك وأجدادك وترتدي فاخر الثياب ولكأنك من وجهاء القوم »[٦٦] .

كذلك حدث في أثناء وجود حملة لويس التاسع في فلسطين أن قام واحد من جند الملك بوضع يده على كتف واحد من الفرسان التابعين لجوانفيل . واعتبر جوانفيل هذا المسلك إهانة بالغة ضد فصله الفارس ، فذهب إلى الملك وشكى إليه ذلكم الجندي . ولكن الملك طلب من جوانفيل أن يتجاهل تلك الحادثة الصغيرة ، فغضب جوانفيل غضباً شديداً وهدد بالاستقالة من خدمة الملك إن لم تتم معاقبة الجندي المذنب . واضطر لويس التاسع إلى تفويض جوانفيل في محاكمة الجندي . وكان على ذلك الجندي أن يقدم إلى خيمة جوانفيل ، عاري القدمين لا يرتدي سوى الملابس الداخلية ، وهو يحمل سيفه ممسكاً بالنصل ، راكعاً أمام السيد جوانفيل ، ومتوسلاً إلى الفارس الذي لحقت به الإهانة وهو يردد : « سيدي ، هاأنذا أعتذر لأنني قد أهنتك بيدي . وهاأنذا أمد إليك سيفي لكي تتمكن به من أن تقطع تلك اليد التي أهانتك ، لو أنك أردت » . وبعد هذا الإذلال طلب جوانفيل من الفارس أن يعفي عن ذلك الجندي[٦٧] .

وهنالك رواية ثالثة من نفس المصدر تعزز ذلكم الشعور المتعالي عند فرسان الإقطاع : فقد كان عند الكونت هنري الملقب « بالكريم » خادم محدث النعمة اسمه أرتود ، أصبح يملك حصناً عظيماً في بلدة نوجنت

---

(66) Joinville, Vie de Saint Louis, VI.
(67) Ibid., ch. XCIX.

أطلق عليه اسمه . وقد حدث ذات يوم أن الكونت هنري كان خارجاً من قصره في مدينة تروي يقصد سان ستيفن للصلاة . وعند نهاية درج القصر وجد الكونت فارساً يركع على قدميه ويتوسل إليه قائلاً : « سيدي ، إني أتوسل إليك بمحبة الله أن تعطيني مالاً أستعين به في تزويج ابنتي اللتين تراهما معي هاهنا واقفتين » . غير أن أرتود الخادم الموسر ، الذي كان يسير خلف الكونت راح ينهر الفارس المفلس قائلاً : « سيدي الفارس ليس من اللياقة أن تطلب من سيدنا مالاً . فلقد وزع ما عنده ، ولم يبق لديه ما يعطيه بعد ذلك . » غير أن الكونت « الكريم » التفت إلى أرتود وقال له : « أيها السيد الفلاح ، إنك لا تقول الحق كله عندما تزعم بأنه لم يعد عندي ما يمكن أن أعطيه ، ذلك لأني أملكك أنت . هيا أيها الفارس الفقير فإني أهب أرتود إليك » . وقفز الفارس على فريسته على التو وأمسك بأرتود من معطفه ، وأصر على ألا يخلي سبيله حتى يتفقا . ولم يفلت أرتود من زمام الفارس المفلس إلا بعد أن دفع له بخمسمائة جنيه كاملة »[٦٨] .

إن هذه الروايات جميعاً وغيرها مما سبق توضح مدى اعتزاز طبقة الفرسان بشعور الاستعلاء والانتماء إلى « خاصة » **(élite)** المجتمع الإقطاعي . ومن واقع هذه المشاعر ، المستندة إلى التفوق العسكري ، لم يكن الفرسان يكنون الاحترام لأثرياء المدن من الطبقات البورجوازية . وقد تمثل هذا الشعور في تلك الأبيات التي كتبها جان مولينيه في القرن الخامس عشر ، والموجهة إلى أغنياء المدن :

« إنك تحيا حياة الرغد والأمان
وهو يحيا في الخطر وضراوة الميدان
أنت تنام قرير العين في المدينة
وهو يقطع الأرض وسيفه في يمينه

---

(68) Ibid., ch. XX.

يبيت أمثالكم على أحلام الثروة والجاه
وهو يموت من أجلك ، وفي قلاعه النجاة »[٦٩] .

ويتضح استخفاف الفرسان بطبقة البورجوازية في عدم تردد الفارس في أن يقطع عليهم الطريق ليجردهم من الثروات التي يكدسونها دون عناء حرب . ولقد عبر الشاعر الطروبادوري برتراند ده بورن عن تلك المشاعر في الآتي :

« إنها لساعة السعادة
عندما تقطـــع الطريق
وينهب متاع المرابين
لن يجسر التجار على عبور الخلاء في فرنسا
من ينقض على هؤلاء الأثرياء
بسيفه يشـــري كثيراً . »[٧٠]

بهذا الأسلوب فرض الفرسان على مجتمع الإقطاع أن ينظروا إليهم نظرة خاصة ، وصار هنالك فرق شاسع في الشرف بين من يقاتل من على ظهر جواده ومن يقاتل وهو راجل في صفوف المشاة . وأبرز دليل على هذا أن دون جويير **(Julliers)** . عندما علم أن واحداً من جند المشاة من بين رجاله قد قام بقتل كونت سان بول الذي كان خصماً عنيداً للدوق ، قد أمر على التو بشنق ذلك الجندي !

وإذا كان الفرسان ــ أبناء أرستقراطيي القلاع ــ يعاملون الأدنياء بهذه المشاعر ، فإنهم كانوا على النقيض من ذلك يعاملون أعداءهم من نفس طبقتهم بــأدب واحترام .

وقد ساهمت روح العصر وأخلاقياته « الغريبة » إلى جانب أدب

---

(69) Jean Molinet, Chroniques, I, 83-84.
(70) M. de Riquer (edè), La Lirica de los Trovadores, I, 427.

الملاحم في تثبيت هذه المعاني لدى أهل العصر . وكانوا يرون في هـــذا السلوك امتثالاً بآداب البلاط التي تواترت في خيال المتملقين من شعراء العصر — وهم أبواق القلاع — عن سير شرلمان والملك آرثر .

ونحن نعلم أن يوحنا الأول أمير البرتغال راح يلهب حماس فرسانه وقت حصاره لإحدى المدن بقوله بأنهم في حاجة إلى قلوب رجال « المائدة المستديرة » لتحقيق المستحيل [٧١] . كما أن شارلس « المتهور » دوق برغنديا — في القرن الخامس عشر — كان شديد الشغف بمطالعة أدب الملك آرثر ، وتشبه به في أعمال كثيرة . والواقع أن السمة السائدة بين سادة ذلك العصر كانت في التشبه بأبطـــال الماضي من « الصناديد » **(worthies)** ، فلقـــد زين الدوق البرغندي حوائط قلاعه بمناظر مستوحاة من حصار طروادة ومغامرات هرقل وفتوحات قيصر وبطولات الاسكندر الأكبر ثم جولات آرثر وشرلمان .

ولقد بلغ الإيمان بالمثل الفروسية حداً إلى أن صراعاً مريراً مثل ذلك الصراع الذي كـــان يدور بين شارلس من آنجو وبطرس الثالث حاكم أراغون سنة ١٣٨٢ حول امتلاك جزيرة صقلية ، قد وجد من ينادي بدعوة الأميرين المتنازعين إلى مبارزة علنية في مدينة بوردو تحكم نتيجتها إلى من تؤول جزيرة صقلية .

ومن هذا المنطلق الفرساني نطالع الكثير من أدب المعاملة للخصم عندما يقع في الأسر بعد القتال المرير . ولدينا مثال على هذا المسلك من كتابات فرواسارت ، عندما وقع ملك فرنسا وكبار نبلائه أسرى في أيدي ولي العهدا لانجليزي المعروف بالأمير الأسود **(Black Prince)** ، في أثنـــاء حرب المائة عام . تقول الرواية :

---

(71) Fernäo Lopes, Cronica de D. Jaâo, I, Pt. I,, Ch. LXXV, (ed. Almeida and Basto), 1949, vol. II, 187.

« وفي ليلة يوم المعركة أقام الأمير (الأسود) حفل عشاء في قلعته على شرف الملك الفرنسي والسادة النبلاء الذين وقعوا في الأسر . وأجلس الأمير كلاً من الملك الفرنسي وولده جيمس ده بوربون والسيد جان ده أرتوا وسيد تانكرفيل وسيد ايتامب وسيد ده مارتان وسيد جوانفيل وسيد بارتناي ، أجلسهم جميعاً إلى مائدة واحدة . كما أجلس السادة الآخرين والفرسان إلى موائد أخرى فاخرة . وكان الأمير (الاسود) يقوم بنفسه بالخدمة على مائدة الملك الفرنسي في تواضع جم وأدب رفيع ، ولم يسمح لنفسه بالجلوس إلى مائدة الملك . ولما أن دعاه الملك إلى الجلوس اعتذر بأنه ليس في مقام يسمح له بهذا الشرف الكبير . ثم وجه الأمير كلامه إلى ملك فرنسا يقول : « سيدي ، بحق السماء لا تبتئس ، لأن السماء اليوم لم تدع الأمور تسير وفق إرادتكم . إن والدي الملك سوف يلقى جلالتكم بكل شرف واحترام ومحبة ، ولسوف يتفق مع جلالتكم بما يوثق الصداقة بينكما . سيدي لعلك تبتهج حتى ولو كانت رحلة (نتيجة) اليوم على غير هواكم ، لقد شهد الجميع اليوم على شجاعتكم في كل الأمور . واني لا أقول القول سخريةً من جانبي ، حاشى الله وكلا ، فعيون الناس خير دليل على صدق قولي » . وبعد أن انتهى الأمير من كلامه إلى ملك فرنسا ، بدأ النبلاء الفرنسيون يتهامسون بأن الأمير قد نطق في نبل زائد كما يليق بفارس نبيل »[٧٢] .

---

(72) Froissart, Chronicle (trans. Berners), ch. CLXVII, :
«Sir, for God's sake make none evil nor heavy cheer, though God this day did not consent to follow your will; for Sir, surely the king my father shall bear you as much honour and amity as he may do, and shall accord with you so reasonably that ye shall ever be friends together after.
And, Sir, methink you ought to rejoice, though the journey be not as ye would have had it, for this day ye have won the high renown of prowess and have passed this day in valiantness all other of your party. Sir, I say not this to mock you, for all that be on our party that saw every man's deeds, are plainly accorded by true sentence to give you the prize and chaplet...».

الفَصْلُ الرَّابعُ

عالم القنية

(Serfdom)

كانت لكلمة قن عدة مرادفات في عصر الإقطاع ، فهو تارةً « رقيق » (Serf) وهي كلمة مشتقة من كلمة « عبد » (Servus) اللاتينية ، وأخرى « بروليتار » (Proletaire) وهي كلمة من جذور رومانية تعني ذلك الشخص الذي ينتمي إلى أدنى طبقات المجتمع (Proletarius) وثالثة « فللين » (Villein) بمعنى الأجير المرتبط بزراعة الأرض ولا يبرحها (٧٣) .

والأقنان كانوا يكونون الغالبية العظمى من سكان غرب أوروبا في العصر الإقطاعي ، وقد ارتبطوا بالأرض في القرى والضياع (manors) . وكانت كل قرية أو ضيعة تخضع لسيد واحد ، ويحتجز هذا السيد جزءاً من الأرض لتزرع لصالحه ، وهو الجزء الذي عرف في مصطلحات العصر باسم « الدومين » (demense) والذي كان يزرع بواسطة الأقنان . والجزء الباقي من الأرض يقسم إلى شرائح صغيرة ومبعثرة يقوم الفلاحون بزراعتها مقابل ضرائب وخدمات ثقيلة ، لا يجد بعد سدادها ما يكاد أن يسد رمقه . ولم يكن القن

(73) Villanus : dweller in a «villa».

عبداً ولكنه لم يكن أيضاً في عداد الأحرار ، فهو بين بين ، بمعنى أنـــه لا يباع ولا يشترى ، ولكنه لا يتمتع بحماية القانون ولا يحمل السلاح ولا يمثل في المحاكم كواحد من المحلفين (Juries) . وعلى هذا فإن وضع القن محير للغاية ، ولذلك فإنه من الصعب تعريف القنية في دقة ووضوح ، وليس أدل على هذا من شكوى واحد من فلاحي نورثهامبتون – شاير سنة ١١٩٨ وهو يقول : « لست أجيراً ولا عبداً ولا قناً ولا أنا ولدت في القنية »(٧٤) .

لقد كان القن رهن إشارة سيد الارض ، ولا يمكنه أن يبرح تلك الأرض فهو أشبه ما يكون برقيقها . ولقد قيل : « السيد يحق له أن يصنع بالقن ما يشاء عدا أن يقتله أو يشوهه». غير أن بعض السجلات تشير إلى أن بعض السادة قاموا بالفعل ببيع أقنانهم وعائلات هؤلاء الأقنان مقابل بضع شلنات .

وفي مقابل زراعة شريط ضيق من الأرض ليعيش عليه ، كانت على القن التزامات غاية في القسوة : فعليه ضريبة سنوية عن تلك الشريحة الأرضية التي التي يقتات عليها ، وعليه ضريبة الرأس (cens) ، وعليه ضريبة العشور (dîme) من محصوله ومن حيواناته ، وعليه العمل سخرة ثلاثة أيـــام في أرض السيد (corvée) ، وهو يدفع ضريبة لاستخدام طواحين ومعاصر السيد ، وأخرى لكي يعبر القنطرة أو ليقترب من المرعى العام، وكان عليه أيضاً أن يسمح بالليلة الأولى من زواجه للسيد في أن يعاشر زوجته (ius primae noctis) ، والغريب أن هذا الجرم الأخير قد ظل معمولاً به في بفاريا حتى القرن الثامن عشر .

وبينما يتلقى الفرسان إقطاعاتهم من السادة برمز السيف في حفل مهيب ، يسمح للقن بزراعة مساحة تافهة يقتات عليها برمز متجبر هو « الشوكة والسوط » (ad furcam et flagellum) . ومن الناحية النظرية كان على القن أن يؤدي للسيد كل ما يؤمر به، وليس له أن يعلم في يومه شيئاً عن

(74) «nec rusticus nec servus nec villanus, nec natus in villenegio».

أمر غده. ويبين لنا «الكتاب الاسود» لإقليم بيتربوره (Black Book of Peterbrough) الذي ظهر ما بين ١١٢٥ ، ١١٢٨ الواجبات التي كانت على القن تجاه سيد القرية وهي : الخدمة في زراعة أرض السيد على مدار فصول السنة ، ودفع ضريبة عن الأرض التي يقتات عليها ، وتقديم خمسين دجاجة و ٦٤٠ بيضة للسيد، والعمل في دومين السيد ثلاثة أيام في من كل أسبوع [٧٥]. وترد تلك الواجبات مفصلة في وثيقة صادرة عن الرهبان الداوية في بلدة جايتنج (Guiting) في اقليم جلوسترشاير سنة ١١٨٥ كالآتي : العمل على أرض السيد يومين كل أسبوع من ١١ نوفمبر إلى وقت جمع العشب المجفف في أول أغسطس، والعمل على المرعى أربعة أيام كل أسبوع حتى موسم الحصاد. وعليه في كل يوم اثنين من الاسبوع المشاركة مع اثنين من الأقنان الآخرين لصالح أرض السيد وخدماته، وفي كل يوم ثلاثاء مع رجل واحد ، وفي كل يوم أربعاء مع رجلين ، وكل يوم خميس مع رجل واحد حتى يتم حصاد القمح. وبعد هذا عليه أن يعمل أربعة أيام كل اسبوع حتى الثامن عشر من نوفمبر . وعليه كذلك حرث المراعي بواقع فدانين على كل قن ، ثم عليه أن يقدم حملاً من الخشب للسيد . وعليه المشاركة في غسل وجز صوف الأغنـــام [٧٦] .

وكان على زوج القن وأولاده واخوته الصغار أن يعاونوه في أداء مـــا يطلب منه من خدمات للسيد، وقد وجد عدد قليل من الفلاحين الذين كانوا أسعد حظاً من الأقنان، وهؤلاء إما أنهم كانوا يعملون على أرض تابعة للتاج مباشرة (terra regis) ، أو أنهم كانوا يزرعون شريحة من الأرض دون تبعية واضحة لأحد السادة . وهاتان الفئتان كانتا قليلة العدد ، واحتفظت

(75) Chronicon Petroburgense, (ed. Stapleton, Camden Soc.), Liber Niger, 1, p. 157.

(76) Records of the Templars in England in the Twelfth Century, (ed. Beatrice, A., Lees), pp. 50 ff.

بجهد جهيد بحريتها . وفي الطرف الآخر كانت هناك فئات أشد تعاسة من الأقنان عرفوا باسم أشباه الأقنان باسم «البورداري» (bordarii) أحياناً وباسم «الكوتاري» (Cottari) أحياناً أخرى : وهـؤلاء هم أرباب الأكواخ الحقيرة التي كانت أشبه ما تكون بالحظائر ، والذين كانوا يقتاتون على هامش هزيل من الأرض على أطراف أرض السيد أو أرض بعض الفلاحين الأحرار . وأبناء هذه الطبقة من المعدمين يؤجرون أنفسهم لمن يقدم لهم ما يسد أودهم فحسب . وإلى جانب هؤلاء كانت القرية الإقطاعية تعرف فئات من رعـاة الأبقار (Vallarii) ورعاة الأغنام (bercarii) ورعاة الخنـازير (porcarii) ، هذا إلى جانب حداد القرية والنجار.

ولم تكن الفروق كبيرة بين الفلاح الحر وبين القن ، والدليل على ذلك أنه في بداية الأمر كان التزاوج يتم بين أبناء الجماعتين . ولكن بعد قليل اتفق على أن يتزوج الابن من أسرة في وضع والده الاجتماعي ، إن قناً وإن فلاحاً ولذا فإننا نسمع في الخصومات المدنية أن المحلفين في المحاكم يستدعون نفراً من المسنين من أهل القرية لكي يدلوا بشهادتهم فيما إذا كان أجداد فلان من الناس «قناً أم فلاحاً حراً» . (utrum sit villanus necne) .

قلنا إنه في بداية الأمر كان هنالك فلاحون أحرار لا يخضعون للسيد الإقطاعي ، وإنما كانوا يتبعون التاج مباشرة . ولكن مع ازدياد الخطر الخارجي المتمثل في الغزوات المتبربرة ، وضعف نفوذ الملك ، ضغط الكونتات على هؤلاء الفلاحين الأحرار وحولوهم إلى عالم القنية . وقد تم ذلك التحول على درجات : إذ سلم الفلاحون أرضهم للسيد ثم تسلموها منه من جديد تحت حمايته مقابل إيجار سنوي . ومع مرور الوقت وتدهور الأحوال فرض السيد على هؤلاء المؤاجرين – لأرضهم في الواقع – ضرورة الالتزام بأداء خدمات معينة له ، تماماً مثلما كانت الحال مع الأقنان . ولم يقتصر الأمر على الأفراد ، وإنما اضطرت قرى بكاملها بمن عليها من فلاحين أحرار إلى أن تضع نفسها كلية تحت رحمة السيد مقابل حمايته لها من غائلة الغزوات وفوضى انهيار

الحكومة المركزية. وهنالك تلك الرواية عن بعض الفلاحين الأحرار الذين حـــاولوا التصدي لذلك التيار الذي تهـــدد حريتهم ، فقد قصد نفر من فلاحي قرية ولن (Wolen) إلى بلاط الملك ليقدموا شكواهم ضد ضغوط السيد الإقطاعي لتحويلهم إلى أقنان. ولكنهم ما أن وصلوا إلى البلاط الملكي حتى وجدوه غاصاً بالبارونات والفرسان والكونتات ، فتاهت شكواهم على شفاههم ، ولم يفلحوا حتى في مجرد عرض شكواهم بأسلوب واضح ومفهوم . ودخلوا إلى أغلال القنية رغم كل شيء .

ولا يعني هذا أن التحول إلى القنية قد تم بالقهر في كل الحالات ، لأننا نعلم أن الكثيرين من الفلاحين الأحرار ، بعد أن يأسوا من الاحوال السائدة وضاقت الدنيا أمامهم ، اضطروا إلى الدخول في القنية بإرادتهم !! ويمكن أن يقال عن هذا التحول « قهر غير مباشر » .

وفي بعض الحالات كان يمكن للقن أن يحصل على الحرية وذلك إن شاء السيد ومنحه نصاً مكتوباً بذلك ، وغالباً ما كان هذا يتم مقابل مبلغ من المال لا يدفعه القن وإنما يدفعه عنه طرف ثالث؛ ذلك لأن ما يملكه القن من مال يعتبر ملكاً للسيد. وقد ورد في « أحكام » الملوك النورمان في انجلترا أن سيدة « قد عتقت من القنية بمال طرف ثالث »(٧٧) . كذلك كان في مقدور بعض الأقنان النابهين أن يتحرروا من أغلال رق الأرض بالانخراط في سلك الرهبانية ، غير أنه في سنة ١١٦٤ اشترط أن يوافق السيد على دخول قنه ذلكم السلك الديني. هذا ولو أن الظروف ساعدت أحد الأقنان في الهرب من الريف إلى المدينة ، وبقي فيها مدة تصل سنة ويوماً واحداً دون أن يطالب به سيده ، فإنه يصبح حراً . ولذا فقد ظهر في ذلك العصر الإقطاعي مثل ألماني يقول : « إن هواء المدينة هو نسيم الحرية »(٧٨) . أما عن الفلاحين الأحرار – وهم تلك القلة التي تمسكت بحريتها ولم تجرفها معاول القنية ، فإنهم لا شك كانوا

(77) Curia Regis Rolls, v, 77: «per alium et per alterius pecuniam».
(78) «Stadtluft macht frei = town air enfranchises.»

أحسن حالاً من الأقنان أو رقيق الأرض . وكان هؤلاء الفلاحون الأحرار يزرعون الشرائط التي تحت أيديهم من الأرض مقابل ضرائب سنوية ، قرنت في غالب الأحيان ببعض الخدمات لسيد « الدومين » . وكان الفلاح الواحد يزرع نطاقاً من الأرض (Virgate) يكفيه وأسرته إن كانت الأرض خصبة ، وفي بعض المناطق الأقل خصوبة كانت الأسرة الريفية تحتاج إلى ثلاثة « نطاقات » لتكفي لمعيشتها (٧٩) .

وكانت الأرض تنقسم إلى نظام الحقلين أو الثلاثة حقول ، وتتم زراعتها بالتناوب: ففي حالة الحقلين يزرع واحدهما ويترك الآخر دون زراعة لإراحة الأرض ، وفي حالة الثلاثة حقول يزرع حقلان ويترك الثالث دون زراعة. وكان البذر يتم في موسم الخريف بالشعير أو القمح ، وفي حالة الحقلين ـ وهو النظام الأكثر شيوعاً ـ يستغل جزء من الحقل الأول بغلة خريفية والجزء الآخر بغلة ربيعية . وكان كل فلاح يقوم بزراعة شريط صغير من هذا الحقل كانت مساحته تحدد بقدر « ما يمكن حرثه في يوم واحد » ، ويجاور ذلك الشريط عدة شرائط أخرى لأقرانه من أحرار القرية . أما الأقنان فهم أدوات الإنتاج ، تماماً مثل المحراث والثيران ، ولذا فإن وثائق العصر تشير إليهم بلفظة « سكيولا » **(Sicula)** ومعناها « البهائم » .

وكان الفلاحون الأحرار يقومون بزراعة عدد شرائط مبعثرة في حقول مختلفة ، بمعنى أنه لم يكن يشرف على رقعة زراعية واحدة . غير أنه بعد أن أزيلت بعض الغابات اتسعت نطاقات الأرض الصالحة للزراعة وازداد معها عدد شرائط الفلاحين الأحرار . فكان يراعى أن يزرع كل فلاح نصيباً من الأرض الصالحة إلى جانب نصيب آخر من الأرض الأقل جودة . وكـان

---

(79) Inquest of the Manors of Glastnbury Abbey (Roxburghe Club), 1, 89, p. 113: «Pro duabus virgatis computata fuit terra illa, sed quia non patuerunt duo homines ibi vivere, redaete ille due virgate ad unam.»

الحصاد هزيلاً بسبب بداءة الطرق الزراعية من حرث وري ، كما أن البذور الجيدة كانت نادرة ولم يكن البذر يتم إلا بطريقة سطحية ، وذلك من حسن حظ طيور السماء ، كما وأن الأسمدة العضوية لم تكن كفيلة بتجديد شباب الأرض .

إن هذا النظام وتلكم الظروف لم تكن تتيح الفرصة لفلاح ما بأن يتفوق على أقرانه من الفلاحين ، لأن أسلوب الزراعة واحد والبذور هي هي والأسمدة عضوية بطبيعة الحال . وقد نتج عن هذا كله أن ظلت الأرض الزراعية في غرب أوروبا قرنين كاملين من الزمان ، أو يزيد، وهي تغل نفس القدر من المحصول دون تطور يذكر[٨٠] .

هذا وعندما اكتمل الهرم الإقطاعي وتجبر السادة الإقطاعيون على الأدنياء في المجتمع ، لم يعد هنالك فرق يذكر بين الفلاح الحر وبين الأقنان من رقيق الأرض : فلم تكن العلاقة بين السيد ومستأجر الأرض علاقة مقننة مثلما كانت الحال مع الأفصال، وإنما كانت تقوم على العرف فقط . وليس أدل على هذا من أن كلمة « إيجار » في فرنسا كانت مرادفة لكلمة « عرف » . والعرف قانون غير مكتوب ، ولذا فلم يكن هنالك أساس متفق عليه ليحكم بين الطرفين وقت الخلاف . ولم يكن لدى الفلاحين من سلاح يقفون به ضد تعنت السادة سوى المقاومة السلبية ، كإهمال الزراعة أو حرق الحصاد . وفي بداية الأمر كان على الفلاح الحر أن يحمل إلى دار السيد إيجاراً نقدياً عن الأرض التي يزرعها ، إلى جانب أحمال من القمح وأعداد من الدجاج وكميات غير محددة من العسل. ولما أن أخذت أغلال القنية تزحف عليه لتكبله ، صار على

(80) Beveridge, W. Economic History Supplement to the Economic Journal, May, 1927, pp. 160-61 : «Broadly over the whole range of 250 years from the beginning of the thirteenth century to the middle of the fifteenth century, the productivity of the soil under wheat shows no general change of level... the general impression is one of stability and stagnation».

الفلاح التزام العمل في أرض السيد ، والخدمة في إصلاح قلعته . وإذا حل أضياف على السيد، كان على الفلاح أن يحمل فراشه ليستريح عليه الأضياف ، أما هو فعليه بافتراش الغبراء والتحاف السماء . كما أن السيد كان يحتكر صنع وبيع الجعة والنبيذ، وتأجير الخيول والثيران وطحن الغلال وعصر الكروم ، وعرفت هذه الأخيرة في فرنسا باسم **(banalités)** وهي كلمة من أصل فرنجي بمعنى « الأوامر » (ban) . كذلك كانت كنيسة القرية خاضعة للسيد أو ملكاً له ، فهو الذي يعين لها كاهنها، وهو في نفس الوقت يأخذ لنفسه نصيباً وافراً من دخول الكنيسة المتمثلة في العشور **(Tithe)** .

وكانت المدفوعات المالية من جانب الفلاحين للسيد في أول الأمر تحمل طابع « الايجار » فعرفت في فرنسا باسم « المطالبات » **(demande)** وفي ألمانيا باسم « الأمر » **(Bede)** ، ثم صارت تعرف باسم « الايجار » **(toulte)** .

وبينما كانت الأموال التي يحصلها السادة من الأفصال محددة وفق العقد الإقطاعي ، لم تكن الأموال التي تجبى من الفلاحين محددة لا في قيمتها ولا بتاريخ محدد ، وإنما كانت متروكة لأهواء السادة .

ولما أن اكتمل نمو المجتمع الإقطاعي في القرن الحادي عشر لم يعد يعرف سوى نوعين من الناس : الحر وغير الحر . والحرهو الذي يحمل السلاح ، أما غير الحر فليست له شرعية خاصة بوضعه الاجتماعي ، وهو يبدو كالغريب في المجتمع ، فهو لا يجلس في المحاكم ولا يعتد برأيه ، ولا يسمح له بحمل السلاح ، وعليه أن يدفع ضريبة الرأس (Chevage) ولا يحق له الزواج من حرة. وبذلك يكون الفلاحون الأحرار قد هبطوا إلى عالم القنية. ولقد عرف الكثيرون القنية على أنها « ارتباط الفلاح بالأرض لا يبرحها »، ولكن وضع القن الاجتماعي يتضح بطريقة أفضل لو أننا فهمنا طبيعة علاقاته مع سيد القرية الأصلي: فمثلاً إذا ما ارتكب أحد الأقنان جريمة قتل ، فإنه يخضع للعقاب من جانب سيده الأصلي ، بغض النظر عن الأرض

التي يقيم عليها ، سواء أكانت تحت سيطرة سيده الأصلي أم في يد سيد جديد .
والمعروف أن السادة كانوا يحتفظون في أيديهم بحق شنق الأقنان على بوابات قلاعهم ، ولذا فإن من العلامات المميزة لذلك العصر وجود المشانق على مداخل القلاع ، علامةً على السطوة والنفوذ . وتطالعنا وثائق العصر عن كثيرين من السادة الذين « ذبحوا » أقناناً ، وعن بعض كبار رجال الدين يشيرون إلى قن ما على أنه « ملك لهم من اخمص القدم الى تاج الرأس » .

كان العنصر الثاني في اقتصاد تلك الأزمان – إلى جانب الزراعة – هو الثروة الحيوانية. وكانت الأبقار والخنازير تعتمد في مرعاها على نطاقات البراري على أطراف الغابات والأحراش ، إلى جانب شريط ضيق مجاور للكوخ . ولم يكن حق الرعي مطلقاً للفلاح ، وانما كان يحدد عدد أبقاره وأغنامه التي يحق لها الرعي على تلك المراعي بقدر ما يفلحه من شرائط أرض زراعية ، كما أنه ملزم بدفع ضريبة للسيد مقابل الرعي . وبعد مواسم الحصاد كانت الأسوار المحيطة بالأرض الزراعية تزال لكي تطلق عليها الأبقار والأغنام للرعي حتى يحل موسم إعدادها للزراعة المقبلة . كما أن كل قرية كانت تحتفظ بنطاق من الأرض تخصها لحشائش المرعى . وبعد جمع حصاد تلك الأعشاب وتخزينها يسمح لحيوانات القرية بالرعي على بقايا تلك الحشائش ، وكان هذا يتم ما بين أغسطس وفبراير من كل عام . أما الخنازير فكانت تساق إلى الغابات والأحراش لتسمن عليها . ويجب ملاحظة أن حق الرعي كان قاصراً على الفلاحين الأحرار الذين في وضع يمكنهم من دفع ضريبة عن المرعي لسيد القرية . أما عن المعدمين من أقنان أو عمال زراعة فلم يسمح لهم بالرعي إلاّ إذا قاموا في مقابله بأداء خدمات معينة للسيد . وقد عرفت ضريبة الرعي باسم « حق العشب » (herbogium) . ولما أن زحفت ظاهرة استطلاع الأراضي على حساب الغابات والمراعي ، باتت الثروة الحيوانية في غرب أوروبا مهددة تماماً بالخطر الفادح . وقد وضحت هذه الخطورة بشكل خاص في انجلترا في القرن الثاني عشر . فنحن نعلم أن مساحة

١٥٠٠ فداناً من مراعي ولاية لنكولن قد حولت دفعة واحدة إلى أراض زراعية(٨١) . وقد نتج عن هذا التحول قلق شديد لدى أهالي القرى ، لأن حيواناتهم باتت تهيم على وجهها وتعتدي على محاصيل بعض الأراضي الزراعية . وليس أدل على الهزال الذي أصاب الثروة الحيوانية من حقيقة أن معدل ما كانت تدره البقرة من ألبان في تلك الفترة على مدى ٢٤ أسبوعاً لم يكن يزيد سعره على ثلاثة شلنات وست بنسات(٨٢) . ولدينا مثل واضح ورد في كتاب الدومسداي (Domesday Book) يلقي الضوء على أبعاد هذا التحول : فمزرعة جريت تيو (Great Tew) في ولاية اكسفورد التي ثمنت بمبلغ أربعين جنيهاً كانت تحوي ست محاريث ، ٢٨٨ فداناً من الأرض المنزرعة بحشائش الرعي ، و ١٠١ فدانٍ من المراعي الطبيعية. وكانت هذه المزرعة إقطاعاً من التاج إلى أودو أسقف بايوه (Bayeux) ، غير أنه عندما غضب الملك النورماندي على الأسقف سنة ١٠٨٨ طرده منها وأعيدت إلى التاج . وفي سنة ١١٣٠ قام أهالي هذه المزرعة بدفع ٣٦ جنيهاً للتاج عنها . وبعد قليل قام الملك ستيفن بإقطاعها إلى إيرل شستر المدعو أرنولف . وفي سنة ١١٦٥ عادت المزرعة من جديد إلى التاج ، ولكنها صارت في حالة يرثى لها ، إذ لم يقدر ثمنها إلاّ بمبلغ ١٦ جنيهاً . وفي سنة ١١٦٧ بذلت جهود لإصلاح حالها كلفت ٢٣ جنيهاً و ١٩ شلناً ، وذلك بتطعيمها بعدد ٤٨ ثوراً وخمسة خيول وعشرين بقرة وعجلين ودبين ، و ٦٨٠ من الأغنام و عشرين خلية نحل . وبعد تلك الإصلاحات الباهظة لم يصل سعرها إلاّ إلى مبلغ ٣٠ جنيهاً . ثم توالت على المزرعة ذاتها عدة إصلاحات أخرى تكلفت تسعة جنيهات وثمانية شلنات وستة بنسات من أجل البذور ، كما أصلحت اسطبلات الثيران بمبلغ جنيه واحد وثلاثة شلنات وأربعة بنسات ، والمحاريث بمبلغ ١٨ شلناً . وبعد هذا

(81) Stenton, D.M. (editor), The Earliest Lincolnshire Assize Rolls, (Lincoln Record Society, vol. 221, no. 65).

(82) Lone-Poole. A., From Domesday Book to Magna Carta, Oxford, 1955, p. 52.

كله وصلت قيمة المزرعة إلى أربعين جنيهاً ، وهو نفس السعر الذي نطالعه في كتاب الدومسدادي لتلك المزرعة في سنة ١٠٨٨ (٨٣) .

وقد كانت الأغنام على وجه الخصوص مصدر رزق طيب للفلاح ، فقد كانت تربية مائة منها تضمن له ربحاً سنوياً يقدر بجنيه كامل، كما أن جلود الأغنام كانت سلعة مطلوبة لاستخدامها في استخلاص رقائق تعد لأعمال الكتابة . وكان أهالي العصور الوسطى يحبون الجبن المستخرج من ألبان الأغنام بصفة خاصة . وقد قدر كاتب من القرن الثالث عشر — وهو والتر من هنلي (Walter of Henley) — ما تدره عشرون من الأغنام بنفس القدر الذي كانت تدره بقرتان حلوبتان ، وهو حوالى ٢٥٦ رطلاً من الجبن ، ونصف دن من الزبد كل أسبوع (٨٤) . وقد زودتنا سجلات العصر بأسعار رؤوس الثروة الحيوانية ، فقد كان الثور يباع بثلاثة شلنات، ورأس الغنم بأربعة بنسات ، والبقرة بشلن وثمانية بنسات، والخنزير بثمانية بنسات . وفي أواخر القرن الثاني عشر، عندما أزيلت المراعي والغابات لزيادة الرقعة الزراعية ، قلت المراعي بطبيعة الحال، فشهدت الاسواق ارتفاعاً في أسعار الثروة الحيوانية بما يعادل نصف الأسعار السابقة بالزيادة.

في بداية عصر الإقطاع كان إنتاج القرية يستهلك محلياً، ولكن مع تطور الأحوال وزيادة الرقعة الزراعية عرفت منتجات القرية طريقها إلى أسواق المدن المجاورة . وفرض السادة على الفلاحين التزام نقل السلع القروية على عربات خاصة إلى تلك الاسواق المدنية عبر طرق وعرة . كذلك اضطر القرويون إلى ارسال شحنات وافرة إلى كبار السادة أو التجار أو التاج إلى أماكن نائية : فمثلاً في سنة ١١٧١ كان على بعض القرى أن تشحن ثلاثة آلاف شحنة من القمح إلى إيرلندة حيث كان الملك الانجليزي يحارب في هذه

(83) Lane-Poole, A., op. cit., p. 52.
(84) Walter of Henley, Treatise on Husbandry, p. 27.

البلاد . وفي سنة ١١٨٩ فرض على قرية كنت (Kent) أن تمد القصر الملكي بعدد ١٩٠٠ دجاجة بمناسبة حفل التتويج الملكي . وفي سنة ١٢٠٣ شحنت ٢٢١٧ رأساً من الخنازير إلى روين حيث كانت جيوش الملك الانجليزي تحارب في نورمانديـــا [٨٥] .

كان سيد القرية الإقطاعي يعهد بشئون ادارة أعماله إلى موظف خاص عرف باسم « المفتش » (Bailiff) . وكانت مهمته تنحصر في ضمان تحصيل جبايات الضرائب من الفلاحين ورئاسة محكمة القرية ، وكان هـــذا « المفتش » يتميز بالغلظة والقسوة في معاملاته مع الفلاحين . وإلى جانبه كان هنالك خادم أقل شأناً ، مهمته متابعة سير الأعمال في القرى عن قرب ، ويبدو أنه كان في الأصل واحداً من الفلاحين ، ثم يختاره السيد للاشراف على أقرانه لصالح ومصلحة السيد في الدرجة الأولى . واحتفظ موظفو السيد بسجلات لحسابات المزرعة أو الضيعة الخاصة بالسيد ، وهي في غاية الدقة ، وتمدنـــا بمعلومات عن قيمة الإيجارات والضرائب ومعدل الانتاج السنوي ودخل محكمة السيد وأرباح بيع السلع القروية في أسواق المدينة ، ومصروفات المبـــاني والترميمات ، وتكلفة حفر الخنادق وبناء الاسوار ، وعدد رؤوس الثروة الحيوانية بمختلف قطعانها .

كانت الخلافات التي تنشب بين السيد والفلاحين تطرح أمام محكمة السيد القروية ، وهي محكمة أخرى تختلف عن محكمة الأفصال التي سبق الحديث عنها . فكان العرف في عصر الإقطاع أنه « يحق لكل سيد أن يستدعي الفلاحين إلى محكمته لتبين أمرهم ولفض خلافاتهم » . وكانت هذه المحكمة تعقد مرة كل أسبوعين لإنزال العقاب بمن تسول له نفسه بالتحرش بالغابات أو المراعي أو الثروة الحيوانية ، وأيضاً للنظر في المشاجرات التي تقع في طرقات القرية . وقد خول السيد نفسه النظـــر في المخالفات التي تعكر « سلام

(85) Pipe Rolls, 18, Henry II; Ric. I; Jo.

التاج » . ثم أخذت صلاحيات هذه المحكمة في التوسع حتى صارت أشبه ما تكون بسلطة بوليسية مسلطة على رقاب الفلاحين ، ولها حق تنفيذ الأحكام وأهمها « حق الشنق » لمن يضبط متلبساً في حالة سرقة **(Infangenetheof)** كذلك جعل السيد من نفسه صاحب الحق في محاكمة حالات الغش في الجعة والتلاعب بأسعارها .

وإلى جانب تلك المحكمة القروية ، كان لكل مقاطعة محكمة كبيرة باسم « مجلس المائة » ، وكان يمثل القرية فيها كل من رئيس الفلاحين أو المشرف عليهم **(Reeve)** وكاهن القرية وأربعة من حسني السمعة من بين الفلاحين . وفي حالة وقوع جريمة قتل في القرية ، كان على الأهلين أن يبلغوا عنها وأن يقبضوا على الجاني بأنفسهم لتقديمه للمحاكمة . واذا فشل الأهالي في ذلك يتعرضون لطائلة قانون « سلام التاج » ولم يكن العقاب يحل بفلاح بعينه ، وإنما كان العقاب ينزل بأهل القرية جميعاً في صورة غرامات مالية جماعية تذهب لخزانة التاج(٨٦) .

كانت أهم شخصية في القرية هو الكاهن ، ففي كنيسته التي — تخضع هي وراعيها للسيد — وفي الفناء الذي من حولها كان الفلاحون يتجمعون في أيام الآحاد للصلاة ، وفي أيام الأعياد للاحتفال ، وأيضاً في أيام المواسم والاحتفالات السنوية . وأحياناً كانت الأسواق تقام في رحاب الكنيسة . ولم يكن الكاهن من أصل ارستقراطي ، وإنما هو من صميم أبناء الفلاحين ، وكان تعليمه هزيلاً ، فوصفه البعض بأنه « أقل جهلاً من الأقنان بقليل » . وهو إلى جانب قيامه بواجباته الدينية من إقامة شعائر الصلاة والوعظ والزواج والعماد والجنازات ، كان خلال أيام الأسبوع يقوم بالعمل كأي فلاح آخر في الحقول . وفي كثير من المناطق كان على كاهن القرية ان يعمل يوماً كل

(86) Vinogradoff, Villeinage, p. 357.

أسبوع في فلاحة أرض السيد(٨٧) . غير أنه كان يزرع لصالحه ضعف حصة الفلاح الواحد في القرية . وكان على الكاهن واجب خطير ، فهو المسئول عن « عجل » القرية لتهجين الأبقار ، و « كبش » الأبروشية لتهجين الأغنام ، و « جوادها » للخيول . وكان الكاهن دائم الإلحاح والطلب على الفلاحين لكي يدفعوا له ما يصلح به من حال كنيسته ، وكذلك لكي يرسل إلى الخزانة البابوية في روما نصيبها من الدخل ، وكان هذا يشمل ضريبة من البيض والدجاج وما شاكلها من منتجات الريف . ثم جاءت ضريبة العشور (Tithe)) الكريهة فشملت كل المحاصيل والثروة الحيوانية والأصواف والزبد والجبن والعسل والفاكهة .

ولقد ارتبطت الأعياد والاحتفالات في قرى الإقطاع بعادات وثنية قديمة ، ورثتها المسيحية عن الوثنية : من قبيل ذلك الاحتفال المعروف « بالليلة الثانية عشرة » ، ويوم الربيع في مايو من كل عام ، ويوم انتصاف الصيف . وكانت الدوافع وراء هذه الاحتفالات تتمثل في الابتهال للسماء لتمن على القريـــة وأهلها بحصاد وفير إلى جانب تقديم صلوات الشكر على ما تغله الأرض من خيرات . وكان يتخلل هذه الاحتفالات مباريات رياضية في المصارعة وصراع الديكة والثيران . وفي الشتاء كان شباب للقرية وبناتها يتزحلقون على الجليد . ولم تظهر كرة القدم (foteballe) حتى سنة ١٤٠٩ .

وكانت سلوى فلاح القرية هي شراب الجعة التي كانت زهيدة السعر ، واشتهر الإنجليز والفرنسيون بالإفراط في الشراب ، وكثيراً ما نجم عن هذا الإفراط شجار كان يؤدي إلى أذى بالغ . ويسوق المؤرخ ميتلاند مثالاً وقع سنة ١٢١١ ، كان يتكرر كل يوم في الآتي : « ريتشارد من كرودول يشكو جون سكوت بدعوى أنه في ليلة عيد ميلاد العذراء منذ ثلاث سنوات ، كان

(87) **Burton Cartulary, (ed. Bridgeman William Salt Archaeological Society), 1916, p. 220 : «Ailwinus presbyter in Wismera (Wetmoor) I domum et I croftam de Inlanda et operatur I die».**

المدعو جون هذا في طريقه من بلدة أشلي وعند وصوله إلى سوق كرينسستر قابل ريتشا د ودعاه إلى الركوب خلفه على ظهر جواده. وفي الطريق مد جون يده بسكين إلى الخلف وطعن بها ريتشارد فجرحه في كتفه الأيمن ، وسقط ريتشارد من على ظهر الجواد، ثم يترجل جون ليطعن ريتشارد بالسكين مرة أخرى في كتفه ، ثم يتركه ملقى على الأرض وهو في حالة سيئة بعد أن سرقه من نقوده وهي ٤٣ شلناً إلى جانب خاتم من الذهب يبلغ ثمنه ١٥ بنساً ، ثم مضى جون في طريقه مسرعاً . ولما أن أفاق ريتشارد، قصد في اليوم التالي ورفع الأمر إلى موظف من موظفي التاج وهو روبرت من هيل، الذي رأى بعينيه الجروح التي أصيب بها ريتشارد ، وعليه فقد شمله بسلام الملك. وبعد ذلك بخمسة ليال جاء جون إلى منزل والدة ريتشارد في كرودول وقام بسرقة المنزل ، ثم أوثق السيدة وعاملها في قسوة زائدة فأصيبت بذعر شديد. وبعد أربعة أيام من هذا الحادث جاء ريتشارد إلى منزل والدته فوجدها على حالة يرثى لها ، وقبل أن تلفظ أنفاسها الأخيرة ، طلبت من ابنها ريتشارد أن يقاضي المدعو جون هذا .. ثم يستدعى جون ، ويأخــذ في الدفاع عن نفسه ، ويقوم بدفع ماركين ليقوم رجال المحكمة بتحري المسألة للتحقق من صدق دعوى ريتشارد عليه حتى لا تكون الشكوى كيدية »[88] .

حتى القرن الثاني عشر لم تكن هنالك وثائق أو عقود مكتوبة تحدد العلاقة بين السادة والأقنان . ولكن القرن الثاني عشر شهد ازدياداً في حركة التعليم ، فعمل أفراد المجتمع على تقنين العلاقات بين مختلف الطبقات. يضاف إلي هذا أن نفس القرن قد شهد اتساعاً في رقعة الأرض الزراعية بعد أن أزيلت الغابات ، وكان على السادة أصحاب هذه الأراضي لكي يرغبوا الأقنان في زراعتها ، أن يبرموا معهم مواثيق وعقود مكتوبة تحتوي على شروط أفضل . واضطر السادة في القرى المجاورة القديمة إلى إصدار مواثيق مماثلة بشروط

(88) Maitland, Select Pleas of the Crown (Selden Soc., vol. i), pp. 58-59.

أفضل أيضاً . وفي فرنسا أصبحت كل قرية تحصل على ميثاق بشروط أفضل تلقب باسم « القرية الجديدة » (Villeneuve) حتى ولو كانت قرية قديمة جداً . هذا ولا يخفى علينا أن تداول العملة قد مكن نفراً من الفلاحين من تكوين ثروات متواضعة ، إشترون بها رقعاً أرضية من بعض السادة. والعامل الأهم الذي ساعد على تحطيم أغلال القنية هو تلك الثورات التي اندلعت لتحطيم الأرستقراطية وقلاعها ، في كل من فلاندرز وفرنسا وانجلترا .

الفصل الخامس

ثورات الأقنان

لم يكن الظلم الواقع على الأقنان من جانب أمراء الاقطاع وفرسانهم محركاً لاندلاع ثورات الأقنان بقدر ما كان الشعور بهذا الظلم هو السبب. ففي نهاية القرن الثالث عشر، مع ازدياد حركة التعليم، بدأ الفلاحون يدركون أن الكيل قد فاض، كما أن الحروب التي تتابعت بين الملكيات الإقطاعية قد جرت على الفلاحين وبالاً شديداً، وخاصة في تلك الضرائب الثقيلة التي فرضت عليهم تباعاً.

قامت أولى الثورات في فلاندرز، واستمرت من سنة ١٣٢٣ إلى ١٣٢٨. وكان يقود الثوار الأقنان زعيم اسمه نيقولاس زانكين (Nicholas Zannekin)، الذي رفض هو وأقرانه دفع الضرائب والعشور الكنسية. وهللت الطبقات المظلومة في بلدان بروج (Bruges) ويبر (Ypres)، وانضم أهلوها إلى الثوار. وقد اتسمت ثورة أقنان فلاندرز بالعنف الجارف الذي تفجرت في أثنائه كل الرواسب المتجمعة والمكبوتة في أسفل الهرم الإقطاعي. وانتقم الأقنان من جلاديهم، فحطموا القلاع وقتلوا السادة، واعتدوا على سيدات القلاع، ولم يعد يخيفهم شيء. ولكن جيشاً ملكياً فرنسياً قام بتطويق الثوار عند كاسيل (Cassel) وقضى عليهم في وحشية زائدة.

ثم اندلعت ثورة الأقنان في فرنسا سنة ١٣٥٨ ، وعرفت هذه الثورة باسم « جاكيرى » (Jacquerie) ، وهي كلمة مشتقة من عادة كانت عند طبقة النبالة الفرنسية في مخاطبتها لأبنـــاء طبقة الأقنان بلفظة « جاك بون أوم » (Jacques Bonhomme) أي (جاك المسكين). وقد هبت تلك الثورة في شمالي فرنسا سنة ١٣٥٨ ، في لحظة حرجة من تاريخ البلاد في أثناء حرب المائة عام . فبعد موقعة بواتييه سنة ١٣٥٦ ، وقع الملك الفرنسي جان الثاني أسيراً في أيدي القوات الانجليزية. وكانت بواتييه خاتمة سلسلة طويلة من الإذلال العسكري للجيوش الفرنسية على أيدي الانجليز. ولقد استاء الشعور العام في فرنسا من تلك المهانات المتتالية ، وصب العامة اللوم كله على الفرسان وأبناء النبلاء الذين كانوا يكونون الجيش الفرنسي . وبعد تلك الهزائم المتكررة أبرمت هدنة بين الانجليز والفرنسيين ، وفي أثناء الهدنة أطلق الانجليز جماعة من الجند المرتزقة على الريف الفرنسي ، فراحوا يخربونه وينهبونه ، ولقد انصب الأذى كله على مناطق إيل دى فرانس ، وشامباني ، وبيكاردي . وقد أجج من نار الغضب في صدور الأقنان أن نبلاء وفرسان فرنسا ، بدلاً من أن يتصدوا لهذه الإغارات الإنجليزية ، كانوا ينضمون أحياناً إليهم ضد بني جلدتهم من فلاحي فرنسا ، للمشاركة في أعمال النهب.

بدأت ثورة الأقنان في نوفمبر ١٣٥٧ في منطقة إيتين مارسيل (Etienne Marcel) في باريس . وقد قرر ولي العهد شارلس الخامس ضرب حصار حول منطقة التمرد وذلك في ١٤ مايو ١٣٥٨ ، ولذا فإنه أمر بتقوية القلاع المحيطة بالعاصمة ، ولكي يحصل ولي العهد على المال اللازم لتقوية تلك القلاع ، فرض ضريبة جديدة على الفلاحين لهذا الغرض . ولقد فزع الفلاحون من هذا المطلب ، لأن تلك القلاع كانت تعد للإنقضاض عليهم ، فكيف يدفعون المال للمساهمة في هلاك أنفسهم وأقرانهم ؟

وفي ٢١ مايو ١٣٥٨ هبت قرى كومبين لتشارك في الثورة ، وامتد لهيبها صوب الجنوب الغربي في المنطقة الواقعة بين نهر ويز (oise) ونهر المارن

(Marne) ، ثم عبر نهر السين. وقام أقنان الجنوب الشرقي في شامباني لينضموا للحركة، وسرعان ما تحركت الطبقات الكادحة في الشمال الغربي في مناطق بوفيه وإميان. وانقض الأقنان على جلاديهم فحطموا القلاع وأحرقوا مواثيق الرق التي كانت تكبلهم بأغلال المذلة والعدم . ثم انضم الكثيرون من بروليتارية المدن من الحرفيين والعمال وصغار التجار إلى رفاقهم الأقنان لتصفية الحساب مع أهل الاستبداد والاستغلال في كل ربوع فرنسا .

وكان قائد الثورة رجلاً من إقليم كومبين يدعى وليم كال، الذي حفز أتباعه على الزحف على باريس لمساعدة أهالي منطقة إتين مارسيل المحاصرة ضد حصار السلطات الفرنسية ومكر النبالة .

وقد ترك لنا المؤرخ المعاصر فرواسارت (Froissart) صورة لتلك الأحداث الدامية، على أنه يجب ملاحظة أن الكاتب منحاز صراحة إلى طبقة النبلاء . يقول الكاتب : « لقد هدرت جموع الأقنان من كل صوب — .. من بوفوازيه ، وبري ، ومن ضفاف نهر المارن ، ومن فالوا ولانواه، ومن أرض كوسى ومن ربوع سواسون، ومن كل بقاع الريف في البلاد ... وتجمع هؤلاء في بوفوازيه وأعلنوا أن الفرسان والنبلاء قد خانوا قضية البلاد ، وتصايحوا بضرورة القضاء على أبناء تلك الطبقة وتدميرهم ... وأقسم كل منهم على أن الإبقاء على حياة النبلاء فعل خيانة. وتحرك الأقنان وهم يحملون الهراوات والسكاكين ، وهجموا على أول قلعة صادفوها ، فدخلوا في قلبها وقتلوا صاحبها وزوجه وأطفاله، كباراً وصغاراً . ثم أشعلوا النار في الدار . وانقلبوا بعدها على قلعة أخرى قوية، فقبضوا على سيدها وأوثقوه إلى وتد ، ثم اعتدوا على زوجه وابنته أمام بصر الرجل . ثم قاموا بقتل الزوجة التي كانت حبلى، ومعها ابنتها وكل الأطفال الذين وجدوهم في القلعة. ثم أشعلوا النيران في القلعة فأتت عليها. وتكررت الحال مع كثير من الدور والقلاع. وانضمت إلى المتمردين جموع أخرى ، فبلغ عددهم ستة آلاف ، لأنهم كلما مروا في بقعة انضم إليهم من كانوا على شاكلتهم . وقد هجر الفرسان والنبـــلاء

قلاعهم، وفروا وذويهم إلى الغابات للاحتماء فيها من غضب الأقنان ... لقد اغتصب الفلاحون السيدات والفتيات دون رحمة، ولكأنهم من الكلاب الطليقة المسعورة». ويمضي فرواسارت في تعديد المآسي التي ارتكبها الأقنان في ثورتهم، إلى حد زعمه بأنهم قاموا بشيء واحد من الفرسان على النار أمام زوجه وأولاده، ثم أمروا الزوجة بالجلوس إلى الطعام معهم. والكاتب لا يسجل لنا إلاّ نوبات الأقنان الجنونية، ولكنه وهو يجرمهم لا يحاول أن يشير ولو بقدر يسير إلى أسباب هذا السلوك الجنوني، وإنما كان همه اتهامهم بالوحشية وتجريم كل تحركاتهم فحسب.

ويمضي فرواسارت في روايته فيقول بأن الأقنان اجتمعوا في كليرمونت ان بوفوازيه واختاروا لهم «ملكاً» (زعيماً)، وأسموه «جاك المسكين» (Jacques Bonhomme)، وهو الذي تطلق عليه بقية المصادر اسم وليم كال (Guillaume Callet). ثم تحرك الثوار من بوفوازيه إلى كوسى، حيث انقضوا في الأخيرة على الفرسان والنبلاء وذويهم وقتلوا كل من وقعت عليه أيديهم منهم. غير أن نبالة فرنسا «وقد مسهم جحيم من النار والدم» على أيدي جماعة الجاكيري راحوا يستصرخون أصحابهم من إقطاعيي فلاندرز وهينولت وبرابانت، وهرع هؤلاء للانضمام إلى نبلاء فرنسا للانتقام من الثوار. وقام النبلاء بهجوم مضاد على «الجنس الشرير» فحصدوهم حصداً، وقطعت رؤوس الكثيرين منهم، وعلقت جثث البعض على الاشجار. وفي أثناء ذلك كان ملك نافار شارلس الشرس قد انقض برجاله على تجمع للفلاحين على مقربة من كليرمونت ان بوفوازيه، وحصد منهم ثلاثة آلاف في ضربة واحدة. ورغم هذا فإن أعداد الثوار كانت تتزايد، حتى بلغوا مائة ألف. هذا وكان الزعيم كال قد وجه جماعة من رجاله لمهاجمة منطقة موه (Meaux) التي كان يقيم بها رتل من سيدات البلاط الملكي. ولكن جاستون فويبوس ده فوا الكونت وجان الثالث ده جرايل تصديا للثوار، وقتلا منهم أكثر من

سبعة آلاف [٨٩] . وفي ١٠ يونيو ١٣٥٨ دبرت خديعة أُوقع فيها بالزعيم كال

---

(89) Froissart, ; «Advint une grande merveilleuse tribulation en plusieurs parties du royaume de France, si comme en Beauvoisis, en Brie et sur la rivière de Marne, en valois, en Lannois, en la terre de Couçu et entour Soissons. Car aucune gens des villes Champêtres, sans chef, s'assemblèrent en Beauvoisis, et ne furent mis cent hommes les premiers; et dirent que tous les nobles du royaume de France, chhevaliers et ecuyers, honnissoient et trahissoient le royaume, et que ce serait grand bien que tous les détruirait. Et chacun d'eux dit ; «Il dit voir, il dit voir, horni soit celui par qui il demeurera que tous les gentilhommes ne soient détruits !» Lors se assemblèrent et s'en allèrent, sans autre conseil et sans nulles armures, lors que de bâtons ferrés et de couteaux, en la maison d'un chevalier qui près de là demeroît. Si brisèrent la maison et tuèrent le chevalier, la dame et les enfants, petits et grands, et ardirent la maison. Secondement, ils s'en allèrent en un autre fort châtel, et firent pis assez, car ils prirent le chevalier et le lièrent à une estache bien et fort, et violèrent sa femme et sa fille les plusieurs, voyant le chevalier ; puis tuèrent la dame, qui était en cienté et grosse d'enfant, et sa fille, et tous «les enfants, et puis ledit chevalier à grand martyre, et ardirent et abatirent le châtel. Ainsi firent-ils en plusieurs châteaux et bonnes maisons. Et multiplièrent tant que ils furent bien 6,000, et partout là où ils venaient, leur nombre croissait, car chacun de leur semblance les suivit... et ces méchants gens, assemblés sans chef et sans armures, roboient et ardoient tout, et tuaient, et efforçaient, et violaient toutes dames et pucelles, sans merci, ainsi, comme chiens enragés... Mais entre autres désordonnances et villains faits, ils tuèrent un chevalier et boutèrent en une broche, et le tournèrent au feu, et le rotirent devant la dame et ses enfants. Après ce que dix ou douze eurent la dame efforcée et violée, ils les en voulurent faire manger et par foce; et puis les tuèrent et firent mourir de malemorte.

Et avaient fait un roi entre eux, qui était, si comme on disait donc, de Clermont en Beauvoisis, et l'élurent le pieur des mau-

عند كليرمونت ان بوفوازيه في الأسر. ثم أطلق ولي العهد الفرنسي رجاله على ريف شامباني للقصاص من بلدة سنليس (Senlis) لوقوفها بجوار الثوار. واستمرت حركات القمع والقتل حتى اغسطس ١٣٥٨ ، وتمت خلال ذلك مذابح جماعية ضد الأقنان في كل ربوع فرنسا(٩٠) .

وفي انجلترا قام الأقنان بثورة عارمة سنة ١٣٨١ . وكان السبب الاساسي الذي أشعل الشرارة في النفوس تلك الضريبة الجديدة التي فرضتها حكومة الملك الطفل ريتشارد الثاني بمقدار شلن واحد عن كل رأس في سنة ١٣٧٧ . وعلت وقتها أصوات في البرلمان الانجليزي على لسان السادة من علمانيين وكنسيين تشكوا من « أقنان الأرض الذين باتوا يعلنون صراحة بأنهم عازمون على التحرر من كل قيود العبودية ، سواء تحرر الأبدان أو تحرير الأرض التي يفلحونها، وبأنهم لن يرتضوا بعد اليوم تعنتاً ولا ظلماً من جانب أي أحد ...

---

vais; et ce roi on appelait Jacques Bonhomme (Guillaume Callet)...

Les gentilshommes des pays ainsi mis à feu et à sang par les Jacques demandèrent l'assistance de leurs amis de Flandre, du Hainaut et du Barbant, et ne tardèrent pas à ce venger par de sanglantes représailles. Si assemblèrent les gentilshomme étrangers et ceux du pays qui les menaient, si commencèrent aussi à tuer et à découper ces méchants gens, sans pitié et sans merci, et les pendaient parfois aux arbres où ils les trouvaient... le roi de Navarre en mit un jour à Rin plus de trois mille, assez prés de Clermont en Beauvoisis... Mais ils étaient là tant multipliés que si ils fussent tous ensemble, ils eussent bien été cent mille hommes... Depuis cette déconfiture, qui fut faite à Meaux (massacre de 9,000 d'entre eux par la force du comte de Foix et le captel de Buch), ne se rassemblèrent-ils nulle part; car le jeune sire de Coucy, qui s'appelait messire Enguerrand, avait grand foison de gentilhommes avec lui, qui les mettaient à fin partout où ils les trouvaient, sans pitié et sans merci».

(90) Luce, S., Histoire de la Jacquerie, (rev. ed.), 1894, passim.

وبأن هؤلاء الأقنان باتوا يهددون حياة موظفي سادتهم ، وأنهم يتجمعون في أعداد ضخمة ويكونون جماعات يتفقون من خلالها على وضع يدهم في يد بعضهم البعض لمقاومة السادة في قوة وبأس شديدين »[٩١] .

والواقع أن « الوباء الأسود » (Black Death) كان قد حصد عدداً كبيراً من الفلاحين والأقنان ، فتركت الأرض بلا رجال يفلحونها . ثم طالب عمال الأرض بزيادة في أجورهم لمواجهة متطلبات الحياة ، ولكن السادة رفضوا الاستجابة لذلك المطلب . كما أن الطبقات الكادحة في المدن من عمال وحرفيين كانوا ساخطين منذ أن صدر « قانون العمال » (Statute of Labourers) سنة ١٣٥١ ، وجمد الأجور رغم ارتفاع مستوى المعيشة . وانضم إلى الأقنان والحرفيين عدد وافر من الذين دمغتهم السلطات الانجليزية بوصمة « الخارجين على القانون » (Outlaws) ، وتألفت من هؤلاء جماعات أطلقت على نفسها « أتباع روبن هود » ، وتحفزوا للمشاركة في الثورة المرتقبة .

وقد أجج من نار الثورة موقف بعض المستنيرين من رجال الدين ، وعلى رأسهم جان بول الذي نادى بالحرية والعدالة والمساواة للطبقات جميعاً . كان جون بول كاهناً من ولاية يورك ، ثم انتقل منها إلى كولشستر (Colchester) . وكانت مواعظ جون بول على مدار عشرين عاماً تندد بالظلم الإقطاعي ، وتدعو إلى إلغاء الفوارق بين الطبقات . وقد ألهبت تلك المواعظ حماس

---

(91) Statutes of Realm, II, p. 2 : «The lords of manors, as well men of Holy Church as other, complain that the villeins on their estates affirm them to be quit and utterly discharged of all manner of serfage, due as well of their body as of their tenures, and will not suffer any distress or other justice to be made upon them; but do menace the ministers of their lords of life and member, and which more is, gather themselves in great routs and agree by such confederacy that every one shall aid other to resist their lords with strong hand.»

المصلين ، وازدادت شهرة جون بول في كل ربوع البلاد . ولذا فإن كبير أساقفة كنتر بري واسمه لانجهام أصدر قراراً بحرمان جون بول من الوعظ بالناس وذلك في سنة ١٣٦٦. ورغم هذا كانت الجماهير تلتف حول جون بول حتى أصبح زعيماً شعبياً. وفي سنة ١٣٧٦ صدر أمرٌ بالقبض عليه ، وأودع في السجن. ولما أن اندلعت الثورة سنة ١٣٨١ بقيادة والتر تيلور وأقنان ولاية كنت ، هجم الثوار على السجن الذي كان يحتوي جول بول في بلدة مدستون (Maidstone) ، وأطلقوا صراحه ، لينضم إلى موكب الحرية . وسار جون بول مع الثوار إلى لندن. وعند معسكر بلاك هيث خطب في رجال الثورة فأشعل حماسهم ، وقد قال في تلكم المناسبة عبارته الشهيرة التي ذهبت مضرب الأمثال في اللغة الانجليزية فيما بعد ، ألا وهي : «When Adam dalf and Eve span, Wo was thenne a gentilman » ؟

وطبقاً لشهادة إحدى الحوليات (Anonimale Chronicle) ، كان جون بول يستنفر الأقنان عند دخول لندن بقيادة تيلور لكي ينقضوا على اللوردات والإقطاعيين والبورجوازيين ، وكذلك كبار الاساقفة ورؤساء الأديرة والرهبان الفاسقين . وبعد أن غدرت السلطات الحاكمة وعمدة لندن بالثوار ، تم القبض على جون بول في بلدة كوفنتري، وحوكم ثم اقتيد إلى حبل المشنقة في بلدة سان ألبانز (St. Albans) ، وذلك في ١٥ يوليو ١٣٨١ . وكما يحدث لكل مناضل حر ، أخذت حوليات المعاصرين من أبواق السلطة في القرن الرابع عشر وما تلاه من قرون في تلويث سمعة الرجل ، وليس من باب المصادفة أن الكاتب المغرض جان فرواسارت يطلق عليه عبارة « الكاهن المجنون من أهالي كنت »[٩٢] .

والواقع أن جون بول كان رائداً من رواد الإصلاح الديني ، إذ إنه شن حرباً على فساد كبار رجال الدين. وقد وجدت هذه الجهود آذاناً صاغية عند

(92) Owst, G.R., Literature and Pulpit in Medieval England, 1933.

أتباع المصلح الديني جون ويكلف (Wycliff) المعارضين للكاثوليكية ، وهم الذين عرفوا في التاريخ باسم « لولارد » (Lollards) . وقد تعاطف هؤلاء مع الأقنان والفئات المغلوبة على أمرها ، وراح دعاتها يشنون حرباً دعائية ضد الوحل الذي تردى فيه رجال الدين ، فلقبوهم بلقب « الكهنة القياصرة » (Caesarean Clergy) . كذلك راحت بعض الأصوات الثائرة تؤرق البيوتات الديرانية التي كان أهلها يعيشون في بحبوحة زائدة من العيش من دخول العشور المفروضة على كل الناس ، بينما كان صغار رجال الدين من كهنة الريف يتضورون جوعاً ، مثلهم في هذا مثل الأقنان . ولما أن اختمرت فكرة الثورة ، أرسلت الإشارة إلى سائر أنحاء انجلترا تقول « بأن « جون بول قد دق الجرس لكم » (John Ball hath rungen your bell)

وتلقف أقنان كنت الإشارة ، فحملوا سلاحهم وانضووا تحت لواء زعيمهم والتر تيلور (Walter Tyler) . وتيلور طبقاً لرواية جان فرواسارت – كان قد سرح من الخدمة العسكرية ، فعاد إلى موطنه ، واختير قائداً للثورة في بلدة مدستون (Maidstone) . وزحف تيلور على رأس رجاله من ولاية كنت ثم استولوا على بلدة كنتربري في ١٠ يونيو ١٣٨١ . وبعد ذلك النجاح تقدم الثوار نحو لندن ، وضربوا معسكراتهم عند منطقة بلاك هيث . ثم حاول تيلور أن يقنع الملك ريتشارد الثاني بعدالة قضية الأقنان ، ولكن تلك المحاولة السلمية انتهت بالفشل وذلك في ١٣ يونيو ١٣٨١ . وعليه فقد قاد تيلور رجاله إلى منطقة سوث ورك (Southwork) ، وقام نفر من الفئات المغلوبة على أمرها داخل لندن بفتح القنطرة المعروفة باسم « قنطرة لندن » ، ودخل الثوار العاصمة واستولوا عليها . ولقد حاول البعض القيام بعمليات نهب في قصور أغنياء العاصمة ، وأولها قصر سافوي الخاص بجون جونت (Gaunt) ، ولكن تيلور ضرب المخربين بيد من حديد ، حفاظاً على سمعة الثورة . ورغم هذا ، فلم يكن هنالك مفر من وقوع بعض أعمال العنف ، فاغتيل المستشار الملكي وهو كبير أساقفة سدبيري (Sudbury)

وقطع رأسه وعلق على قنطرة لندن . كذلك قتل عدد من أغنياء التجار الأجانب في العاصمة ، خاصة من أهالي فلاندرز[٩٣] .

بعد هذا عمل الملك ريتشارد الثاني ورجال بلاطه على خداع الثوار ، فقابلهم الملك عند مايل إند (Mile End) في ١٤ يونيو ١٣٨١ ، ووعدهم بتنفيذ مطالبهم بالغاء الرق وتحديد سعر إيجار الفدان بواقع أربعة بنسات ، وبالغاء نظام السخرة ، وبإصدار عفو شامل عن كل من شاركوا في « التمرد ». ثم كلف الملك ثلاثين من الكتبة لوضع المواثيق لتسجيل الحرية والعفو لكل قرية وأهليها على حدة . وهدأت الخواطر ، ورحل عدد وافر من الثوار إلى قراهم ، بينما بقي أهالي كنت تحت قيادة زعيمهم تيلور يرقبون الموقف . وقد اشتم الثوار أن قوى الغدر والإقطاع كانت تتحرك في الظلام لتقويض مكاسب الثوار . ولذا فقد هجم الثوار على برج لندن واستولوا عليه . واضطر الملك ريتشارد الثاني إلى مقابلة زعماء الثورة من جديد عند سمث فيلد (Smithfield) ، ووعدهم بتنفيذ طلباتهم ، كما أن تيلور طلب إلى الملك أن يعمل على مصادرة أملاك الكنائس التي كانت تمثل ثراء فاحشاً وسوطاً مسلطاً على ظهور الفلاحين . وبينما كان تيلور يتفاوض في الأمر مع واحد من رجـــال الملك في سمث فيلد ، قـــام واحد من أتباع وليم ولورث عمدة لندن بطعن تيلور طعنـــة غادرة بخنجر . ثم انقضت القوات الملكية على تجمعات الثوار ، وراحت تحصدهم حصداً ، بالغدر والخيانة . غير أن أتباع تيلور حملوا زعيمهم الجريح إلى مستشفى سان بارتلميو ، ولكن كلاب الحراسة

---

(93) There is reference to these incidents in Chancer's Canterbury Tales : Nun's Priest's Tale, «when the farm hounds are chasing the fox»:

«Certes Jack Straw and his meinie
Ne maden never shoutes half so shrille
When that they wolden any Fleming kille
As thilike day was made upon the fox.»

الملكية هجموا على المستشفى ، وجروا الرجل الذي كان ينزف دماً من فراشه ، وقاموا بشنقه (٩٤) . ثم انقض الفرسان والنبلاء الجلادون على القرى وذبحوا كل من كانت له صلة بالثوار . وانعقد البرلمان الانجليزي ، وألغى بجرة قلم كل المواثيق التي كان كتبة الملك قد أعدوها بالفعل .

ولكن إذا كانت القوى الإقطاعية قد نجحت في خداع الأقنان ، وإجهاض ثوراتهم إلا أن النظام نفسه قد أخذ يهتز ، وبقيت ثورات فلاندرز وفرنسا وانجلترا في القرن الرابع عشر نبراساً مضيئاً للثوار في كل الأجيال التالية .



(94) Wilkinson, B., «The Peasants Revolt of 1381», Speculum, Vol. XV, 1940.



BIBLIOGRAPHY

— BRACTON'S NOTEBOOK. Ed. Mitland, F. W., 3 vol. London, 1887.

— BLOCH, M. Feudal Society. Trans. from the French by Manyon, LA. London, 1961.

— BROOKE, C. Europe in the Central Middle Ages. London, 1964.

— BRAANT, A. The Age of Chivalry. London, 1963.

— CASTEX, P.G. AND OTHERS. Manuel des Etudes Littéraires Françaises, Moyen Age. Paris, 1907.

— DOUGLAS, D.C., William the Conqueror. London, 1964.

— DURANT, W. Ihe Age of Faith. New York, 1950.

— FLACH, J. Les Origines de l'Ancienne France. Paris, 1886-1917.

— FUSTEL DE COULANGES, N.D. Les Bénéfices et la Féodalité. (Histoire des Institutions).

— GIES, F. AND JOSEPH. Life in a Medieval City. London. 1969.

— HAY, D. Europe in the 14th and 15th Centuries. London. 1966.

— HUIZINGA, J. Men and Ideas, History, the Middle Ages, the Renaissance. Trans. by James S. Holmes and Hans van Marle. Meridian Books, Inc. 1959.

— JONES, J. A. P. King. John and Magna Carta. London, 1971.

— KNOX, M. JR. AND OTHERS. Like It was. Like It Is (People and Issues, in the estern World). Glenview, Illinois, 1972.

— LAGARDE AND MICHARD. Moyen Age. Paris, 1957.

— LAMONTE, J.L. The World of the Middle Ages. New York, 1949.

— LANE-POOLE, A. From Domesday Book to Magna Carta. Oxford. 1955.

— LATOUCHE, R. Caesar to Charlemagne. Trans. Nicholson, J. London, 1968.

— LOYN, H.R., Anglo-Saxon England and the Norman Conquest. London, 1962.

— LUCHAIRE, A. Manuel des Institutions Françaises ; Période des Capétiens Directs. Paris, 1892.

— STENTON, F.M. Anglo-Saxon-England. London, 1943. English Feudalism. Oxford, 1952.

— TREVELYAN, G.M. English Social History. London, 1945.

— VINOGRADOFF, P. The Growth of the Manor. London, 1905. Feudalism vol. III (Cambridge Medieval History).

— WALEY, D. Later Medieval Europe, from St. Louis to Luther. London, 1964.